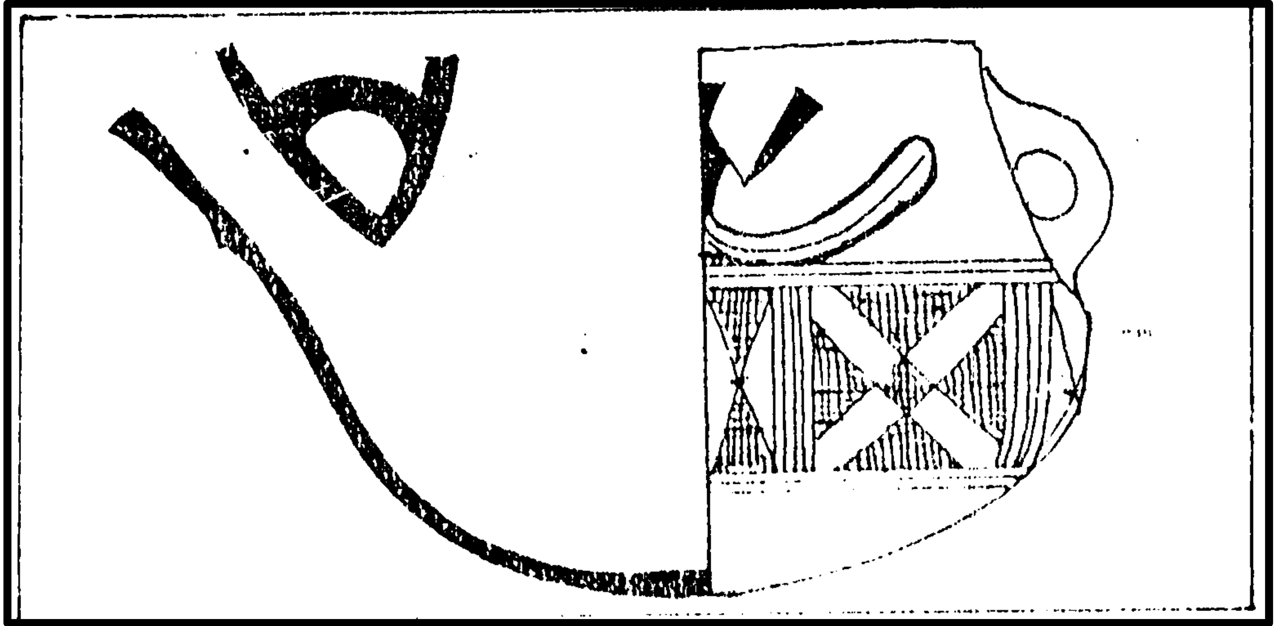


صناعة الفخار في الريف

خوسي أ. رامون بوريو

صناعة الفخار في الريف

خوسي أ. رامون بوريو



طنجة، نونمبر 1987 *Trans. NBE*

ملاحظة أولية

سنتجنب عمداً العلاقة الأولية بين موضوع الفخار الريفي وبقية القضايا المتعلقة بالمنطقة من الناحية العامة: الإنسانية والاجتماعية والثقافية.

الريف كمنطقة تاريخية تتميز بتعقيدها وأهميتها، لدرجة أننا إذا ربطنا عملنا بها بأي شكل من الأشكال، حتى لو كان هامشياً، فإننا نخاطر بتلاشي هذا العمل في ظل المشهد الواسع والمفصل الذي تقدمه.

لذلك، لن نستخدم المقاربات التاريخية المحلية؛ بل سنقتصر على دراسة تقنية صناعة الفخار في منطقة الريف لتحديد مراحلها، والوصول، إن أمكن، إلى استنتاجات تتعلق حصريًا بصناعة الفخار، والتي، إذا اعتُبرت ذات أهمية، يمكن أن تساهم في إثراء المعرفة البشرية عن المنطقة.

ومن هنا يأتي تواضع هذا العمل وبساطة منهجيته في الوقت نفسه.

ومع ذلك، فقد تم إنجاز هذه المهمة بفضل المساعدة التي قدمها العديد من الأشخاص الذين ساهموا في إخراجها إلى النور باهتمامهم ومساهماتهم. وأتوجه بالشكر إليهم جميعًا.

طنجة، نوفمبر 1987

مقدمة

على الرغم مما ورد في الملاحظة التمهيدية، من المناسب تحديد الإطارات الجغرافية والبشرية التي سنعمل في إطارها، لننتقل بعد ذلك إلى دراسة عملية صناعة الفخار في المكان الذي تطور فيه، والأشخاص الذين جعلوا ذلك ممكناً.

تقع منطقة الريف في شمال المغرب، وهي عبارة عن سلسلة جبال متوسطة الارتفاع تنتشر فيها وديان صغيرة. وتقع هذه المنطقة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتشكل في شمالها سلسلة من المنحدرات شبه المتصلة، لا يقطعها سوى بعض الخلجان الصغيرة التي تضم القرى الساحلية القليلة.

جنوباً، تنحدر جبال الريف بشكل أكثر انسيابية نحو منطقة تازة وفاس.

هذه الخصائص الطبيعية أعاقت بشكل كبير، سواء أردنا ذلك أم لا، طابعها المتوسطي؛ صحيح أنه منذ العصور التاريخية المبكرة، تم إنشاء مستوطنات فينيقية على الساحل، كما يخبرنا الأستاذ طراديل في دراسته عن ساحل الريف وغمارة، إلا أننا لا نستطيع مقارنتها بالكثافة التي توفرها مناطق أخرى أكثر انفتاحًا واتساعًا.

خصائصها الجغرافية تجعلها منطقة فقيرة اقتصادياً مقارنة ببقية أنحاء البلاد، لكنها مكتظة بالسكان.

في هذا الإطار الجغرافي والبشري، تظهر سلسلة من المظاهر الثقافية. أحدها يتمثل في الفخار الريفي، وهو موضوع عملنا هذا.

يندرج الفخار التقليدي في هذه المنطقة من الناحية الفنية ضمن مجموعة أوسع تعرف باسم" الفخار الأمازيغي المصنوع يدوياً". وقد تطور هذا الفخار محليا انطلاقاً من الأشكال التي تعود إلى العصر الحجري الحديث، مع الحفاظ على جزء كبير من التقنية الموروثة عن هذا العصر، ليصل إلى يومنا هذا.

لكن هذا لا يعني أن المنطقة ظلت مغلقة تمامًا أمام التأثيرات الخارجية. فعندما وصل المستعمرون الأوائل، أحضروا معهم الفخار المصنوع على المخرطة وبدأوا في تصنيعه هنا. وفيما بعد، أتمت روما هذه العمليات، لتصل إلى المساهمات الثقافية العربية التي نشرت تقنيات التزجيج والمينا القادمة من المشرق.

وبهذه الطريقة نجد تطورين متوازيين لا يلغي أحدهما الآخر كما يحدث غالبًا في مجالات ثقافية أخرى، وبذلك نحصل على أولى خصائص هذه الصنعة، وهي استمرارها على الرغم من انتشار طرق جديدة أكثر تطوراً.

في الوقت الحاضر، يتخذ الفخار الأمازيغي شكلين: الأول مصنوع على المخرطة ويشمل قطعاً من جميع الأنواع والأشكال ضمن التقليد الكلاسيكي، والثاني مصنوع يدوياً وفقاً للأسلوب القديم.

لقد نجت هذه التقنية بشكل خاص في الريف. وفي أيامنا هذه، وجدنا أنفسنا أمام عمل يحافظ على العديد من المقاربات التقنية التي لا شك أنها كانت سائدة خلال بدايات هذه النشاط.

إن عمل هؤلاء الخزافين الصغار في ورشاتهم العائلية هو بمثابة " أحفورة " من العصور القديمة، وهو ما سيثير بالضرورة اهتمام الباحثين الذين يسعون إلى استكشاف معلومات عن حقبة بعيدة كل البعد عن ثقافتنا الحالية.

سنبدأ بتقسيم الموضوع إلى الأجزاء التالية لغرض دراسته:

أ) الخصائص العامة.

ب) عملية التصنيع.

ج) طبيعة القطع.

د) تصنيف الأشكال الأكثر انتشارًا وأهمية.

هـ) الاستنتاجات النهائية.

في الفقرة الأولى، سنحاول تقديم لمحة عامة عن الفخار الريفي كعمل حرفي بخصائصه العامة، وسنقارنه مع أشكال أخرى مماثلة من مناطق متباينة جدًا من حيث الموقع ولكنها متشابهة من حيث التقاليد.

التقنية المستخدمة هي بشكل عام تقنية الخزافين الأوائل. غالبًا ما كانت النساء هن اللواتي يقمن بهذا العمل باستخدام وسائل بسيطة وبدون أي بنية تحتية صناعية.

إنها صناعة فخارية مخصصة لتلبية الاحتياجات المنزلية بشكل كامل وعملي، وبالتالي فهي بعيدة كل البعد عن تلك التي ستؤدي لاحقًا إلى ظهور الشبكات التجارية. وحتى في الوقت الحاضر، حيث يتم تصنيعها بكميات كبيرة لبيعها كهدايا تذكارية للسياح، لا تزال هناك العديد من الأوراش العائلية التي تديرها النساء اللواتي يقمن بعد ذلك ببيع إنتاجهن القليل في الأسواق القروية. وهي تقدم لنا منتوجاً مصنوعاً بدقة متناهية، مع عناية فائقة في صنعه، ومتقيداً إلى حد كبير بالنماذج التقليدية التي تتكرر من منطقة لأخرى.

مع إدخال استخدام الفرن في عملية الطهي، أصبحت جودة الفخار عالية، مما يمنح القطعة تماسكاً ملحوظاً.

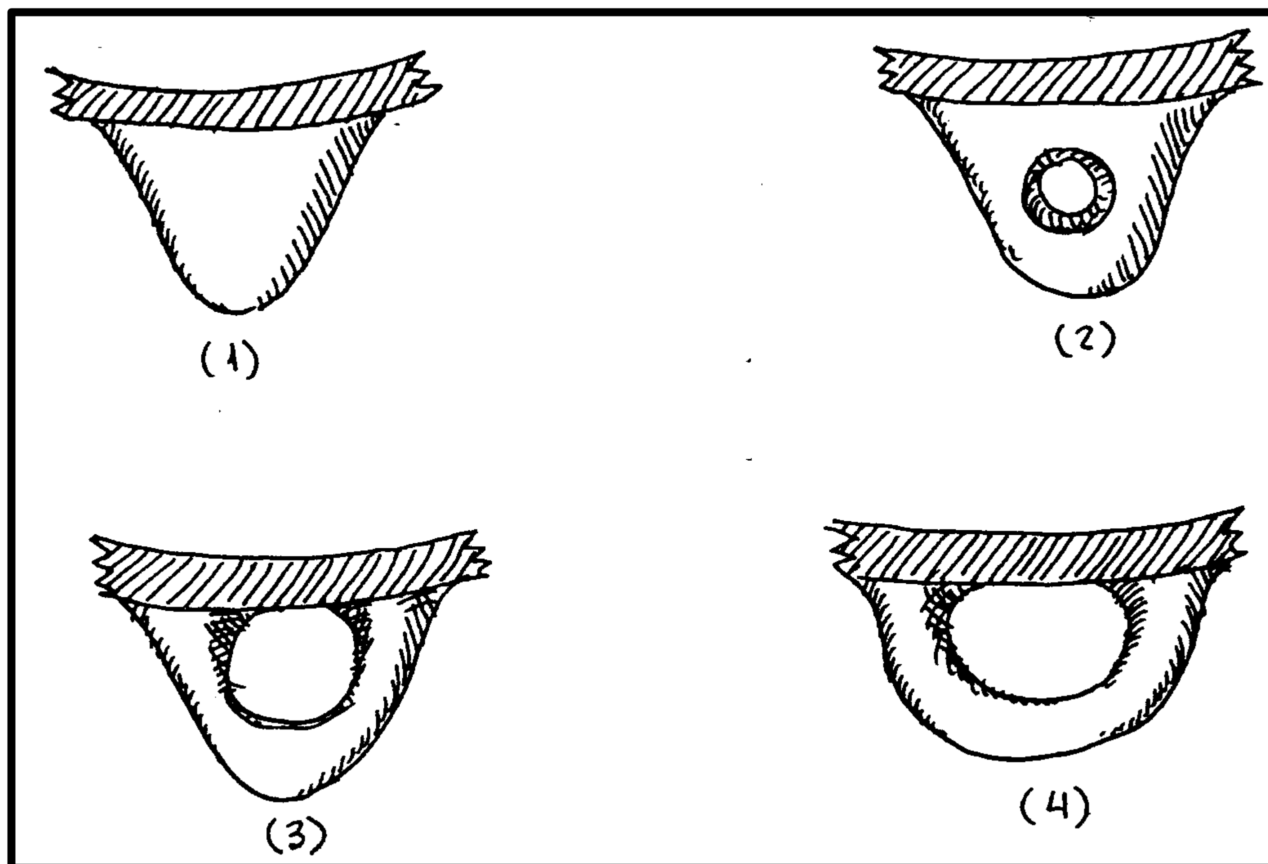
استمرار الأشكال القديمة واضح، ومن خلال إجراء تصنيف مناسب يمكننا إعادة تمثيل عملية تطور القطع وعناصرها الإضافية.

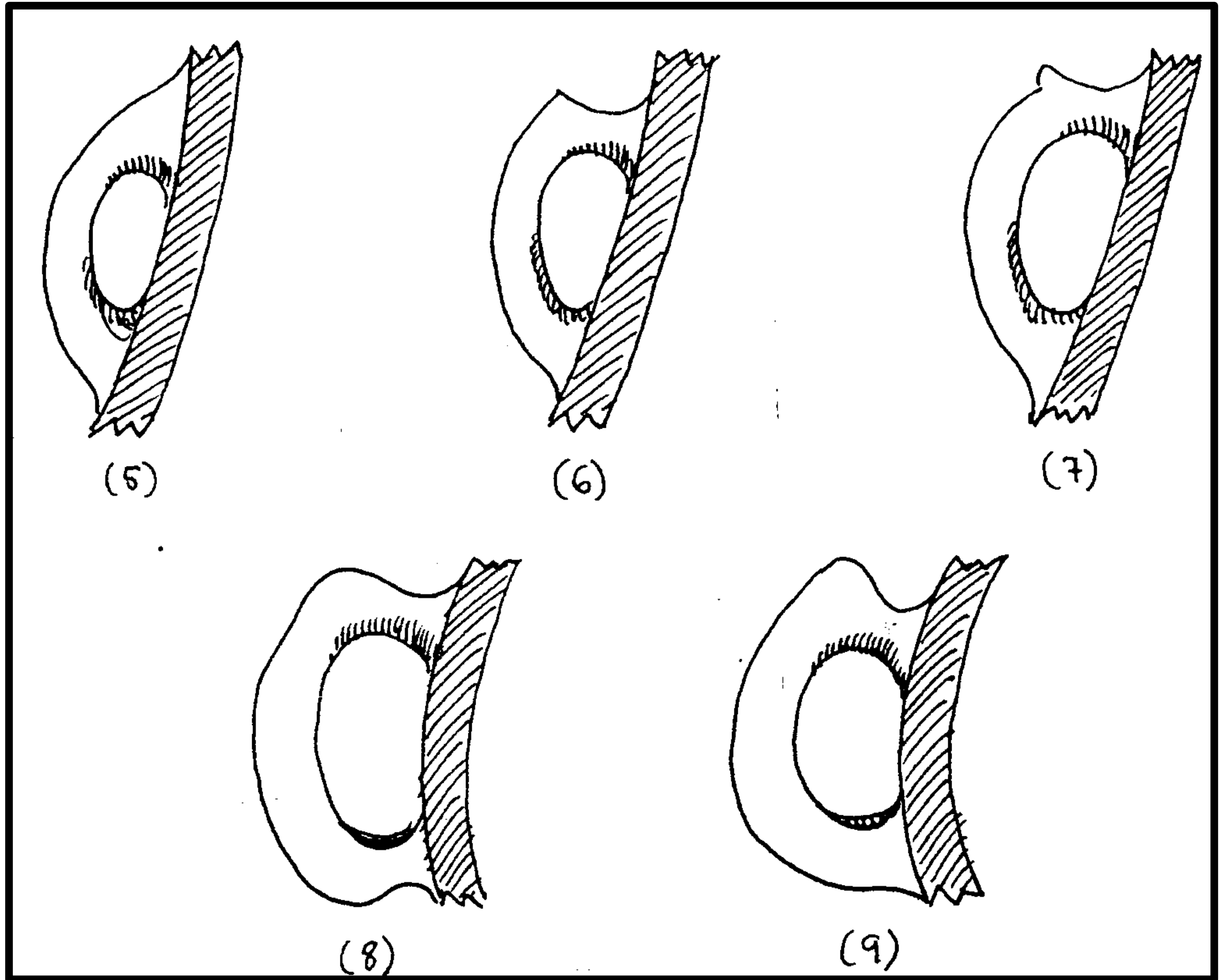
إذا نظرنا إلى أنواع المقابض المستخدمة، فسنرى أنها تتراوح بين المقابض القديمة الغليظة التي كانت تستخدم خلال العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي، والتي كانت توضع أفقياً، إلى المقابض العمودية ذات نقطتي تثبيت بأنواعها المختلفة.

هذا هو أحد عناصر صناعة الفخار المدروسة، حيث يمكن متابعة تطوره بمزيد من التفصيل. أما القطع الأكثر قدماً، وهي تلك التي وجدناها في سوق أجدير (الحسيمة)، فتتميز بمقابض غليظة (1) موضوعة أفقياً على قطع مصنوعة بالكامل يدوياً باستخدام أسطوانات ذات خشونة واضحة. وهذا النموذج هو الأقرب إلى النماذج المستخدمة في صناعة الفخار خلال العصر البرونزي المتوسطي.

هناك نماذج أخرى تمثل هذا النوع ولكن مع ثقب مركزي (2) كما يمكن ملاحظته في الأطباق والقدور (الطاجين) القادمة من واد لاو، وهو ما يمثل خطوة تطورية أولى نحو المقبض ذي نقطتي التثبيت (5 و4).

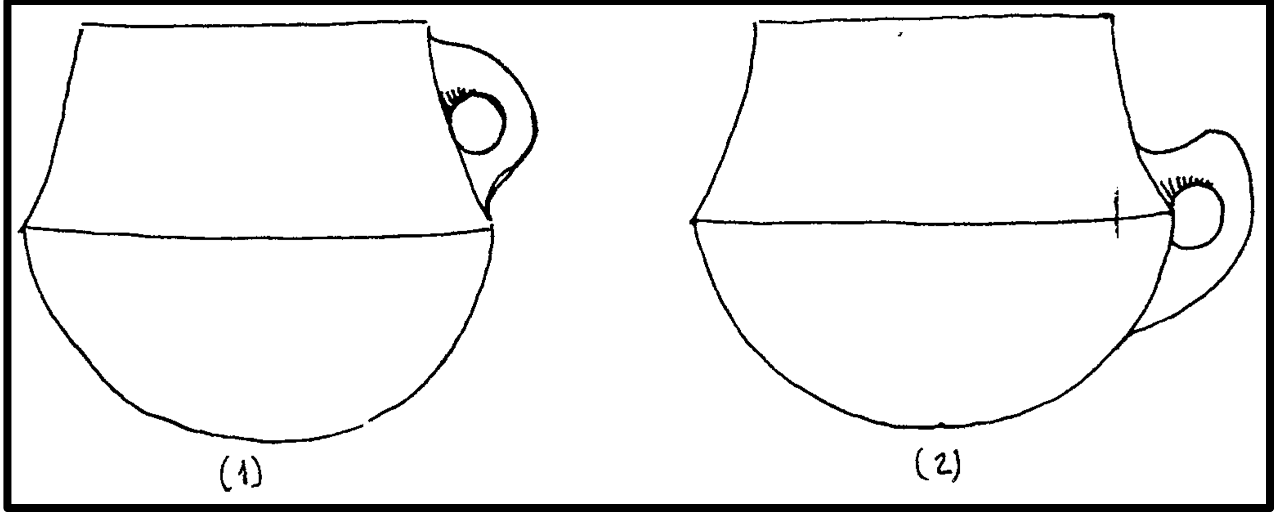
بمجرد أن يكتسب المقبض شكله الأكثر حداثة، والذي يتم تصنيعه بواسطة أسطوانة على شكل قوس يتم لصقها في نقطتين من الإناء، يجب مراعاة موضعه، الذي غالبًا ما يكون عموديًا، وكذلك التفاصيل التي تكمل شكله؛ كما هو الحال بالنسبة لبعض المقابض المدببة في الجزء العلوي من قوسها (5 و6 و7 و8 و9) التي تتوافق مع صناعة الخزف في الحسيمة (5 و6 و7) أو في واد لاو (8 و9).





الشكل 1. نماذج المقابض.

من ناحية أخرى، تذكرنا العديد من أشكال القطع بوضوح بأشكال قطع العصر البرونزي المتوسطي عند المقارنة. (الشكل 2)



.الشكل 2. (1) كوب مزخرف من العصر البرونزي. (2) كوب من الحسيمة

ومن الخصائص التقليدية الأخرى التي لا تزال موجودة في هذه الحرفة، تصميم القطعة بناءً على الوظيفة التي ستؤديها، بما في ذلك الحفاظ على الأسماء المحددة للمهمة (قدور، أوعية زيت، أباريق حليب، إلخ).

نظرًا لأن الغرض منها هو الاستخدام المنزلي، فإن التصاميم تتنوع حسب ذوق الصانعة، التي ستكون هي أيضًا من ستستخدمها في المنزل، ولكن مع الحفاظ على معايير محددة.

لذلك، نجد في معظم الأحيان مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأحجام لنفس الطراز واختلافات طفيفة لا يمكن ملاحظتها إلا في الجوانب الثانوية (الزخرفة، حجم المقابض وعددها، وجود أو عدم وجود قاعدة مسطحة، إلخ).

باختصار، نجد أنفسنا أمام فخار من الطين الأحمر الفاتح، مصنوع يدويًا ومصقول بدقة، تغلب عليه الأشكال الكروية، ومصمم وفقًا للغرض المصنوع من أجله وهو تلبية الاحتياجات المنزلية.

:الأشكال الأكثر شيوعًا هي

.قدور وأواني طهي وأواني للفطائر-

.أوعية لحفظ السوائل -

.حاويات للمنتجات الزراعية-

.أخرى مستوحاة من تصاميم حديثة من مواد مختلفة ولكن تم تكييفها مع تقنية صناعة الفخار التقليدي-

ب- عملية التصنيع

تعمل الفخارية أمام باب منزلها بمساعدة متدربة وتستخدم أدوات مصنوعة يدوياً بالكامل - ملعقة خشبية قديمة، مكشطة بسيطة تكون في معظم الأحيان مشطاً تالفاً - وقليل من الأدوات الأخرى.

تبدأ عملها على لوح دائري من الطين الجاف، الذي يستخدم كدعامة. تأخذ كرة من الطين، وتسحقها حتى تتشكل على شكل كعكة، وستكون هذه هي القاعدة. باستخدام كرات متتالية، تصنع حبالاً من الطين توضع فوق بعضها البعض لتشكل الجدران حتى تكتمل القطعة.

بمجرد القيام بذلك، ستؤدي الحركة المتزامنة لكلتا اليدين إلى لصق القطع المختلفة وإعطائها الشكل المطلوب، بالضغط من الداخل والخارج في نفس الوقت، مع تدوير المجموعة ببطء لتجميع جميع أجزائها.

بمجرد إتمام عملية التثبيت، تبدأ عملية الصقل والتلميع. تتمثل العملية الأولى في إغلاق جميع خطوط اللصق عن طريق "تمشيط" السطح بالمشط القديم، ثم "غسل" القطعة بخرقة من الجلد المبلل لإزالة أي عيوب محتملة.

وبذلك تكون القطعة شبه مكتملة في مرحلة التليين. بعد ذلك تأتي عملية تثبيت الملحقات: المقابض، والصنابير، والقواعد، وما إلى ذلك. وأخيرًا، تأتي مرحلة الصقل، عندما تصل القطعة إلى درجة معينة من الصلابة أثناء عملية التجفيف.

للقيام بذلك، يمكن استخدام أي سطح أملس وصلب، من حصاة صغيرة إلى صدفة حلزون، ليكون بمثابة مجسم. الهدف من هذه الخطوة الأخيرة هو إغلاق مسام الطين، مما يمنحه مزيدًا من الصلابة ويضفي عليه في الوقت نفسه لمسة نهائية لامعة ومصقولة تبرز مع عملية الطهي نفسها.

يتم ذلك في الغالب في الهواء الطلق، في فرن بسيط يتكون من دائرة من الحجارة، توضع فيها القطع بعد تجفيفها تمامًا، وتغطى بوقود خفيف، وهو في الغالب أوراق الدوم، مما يضمن طهيها بدرجة معينة من الجودة.

في الوقت الحاضر، تم تحسين هذه المرحلة من التصنيع باستخدام أفران من النوع المسمى " الأفران العربية"، والتي على الرغم من بساطتها، إلا أنها تؤدي مهمتها على أكمل وجه.

الجزء الأخير من عملية صناعة الفخار هو التزيين إذا كانت القطعة مطلية. ولهذا الغرض، غالباً ما يتم طلاء الطين الفاتح قبل عملية الطهي لإخفاء اللون الأحمر الذي يغلب على القطعة، بحيث يبرز لون الرسوم الأسود بشكل أكبر.

الرسومات، ذات الأشكال الهندسية، تُنجز بالفرشاة باستخدام عصير أوراق شجر المصطكي الذي يعطي لونًا بنيًا داكنًا. أما الزخارف الأكثر دقة فترسم بريشة طائر أو بفرشاة صغيرة مصنوعة من شعر الماعز. عادة ما تكون التركيبة بسيطة ولكنها تمتاز بالتناغم والتوازن؛ مع قدر كبير من الارتجال مع احترام التناسق، وتذكرنا بالأعمال الفنية المتوسطية التي نشأت في كنوسوس وموكناي منذ أربعة آلاف عام.

.لتثبيت الرسم، تخضع القطع لعملية طهي خفيفة لاحقة، والتي غالبًا ما تتمثل في مجرد حرقها باللهب

عندما يكون الزخرف محفوراً، يتم إنجازه على القطعة الطرية قبل عملية التجفيف النهائي، ويتكون من سلسلة من النقاط ذات السماكة المختلفة التي تشكل سلسلة في بعض أجزاء سطح القطع.

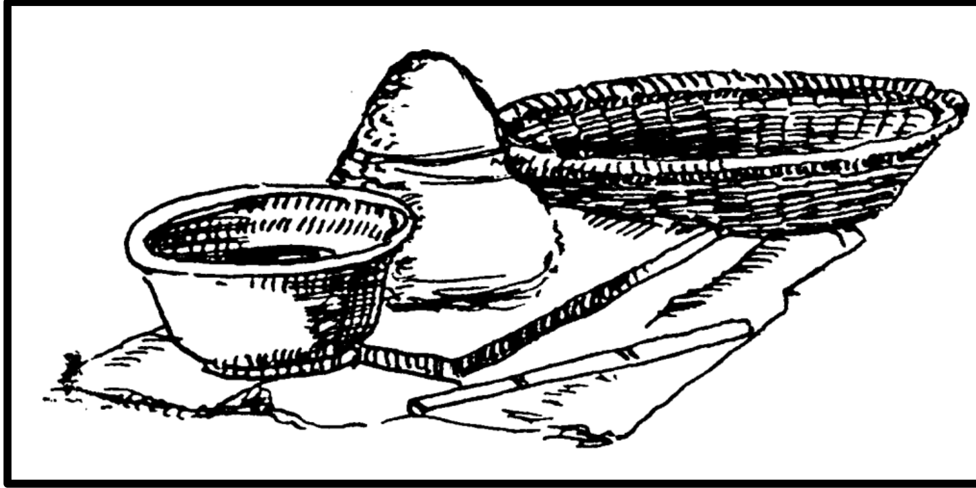
ومن خلال عملية التصنيع، يمكننا العودة مرة أخرى إلى مسألة جذورها العائدة إلى العصر الحجري الحديث، ولتعزيز هذه النظرية، يمكننا اللجوء إلى المقارنة مع صناعات أخرى قديمة بشكل واضح والتي استمرت في مناطق ثقافية أخرى حتى يومنا هذا.

في دراسة إثنوغرافية أجريت اعتبارًا من عام 1948 في ما كان يعرف آنذاك بغينيا الإسبانية، تمت متابعة عملية صناعة الفخار في بعض قرى شعب الفانغ، ومن خلال هذا العمل الدقيق، يمكننا أن نسلط الضوء على سلسلة من أوجه التشابه التي تنطبق على جميع صناعات الفخار في المراحل الأولى من عملياتها التقنية. وهذه الأوجه هي كما يلي:

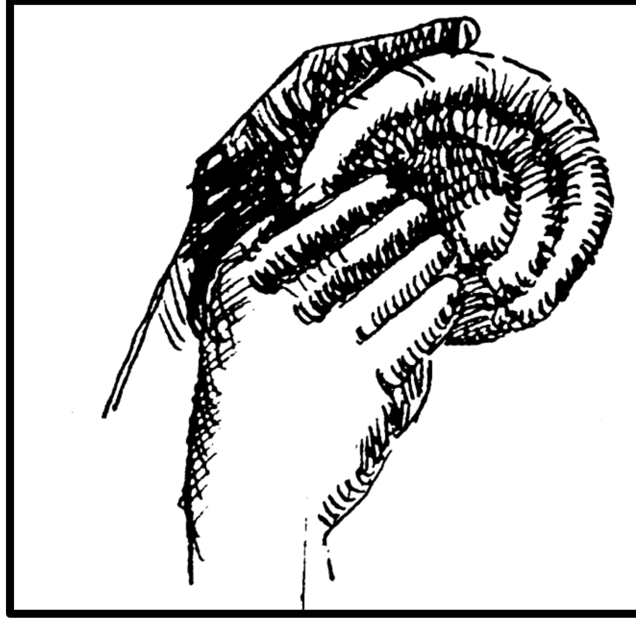
-أنه فخار موجه إلى الاستهلاك العائلي بشكل خاص.

- تتكلف به النساء فقط (مع وجود مجموعة من المحظورات والطابوهات).

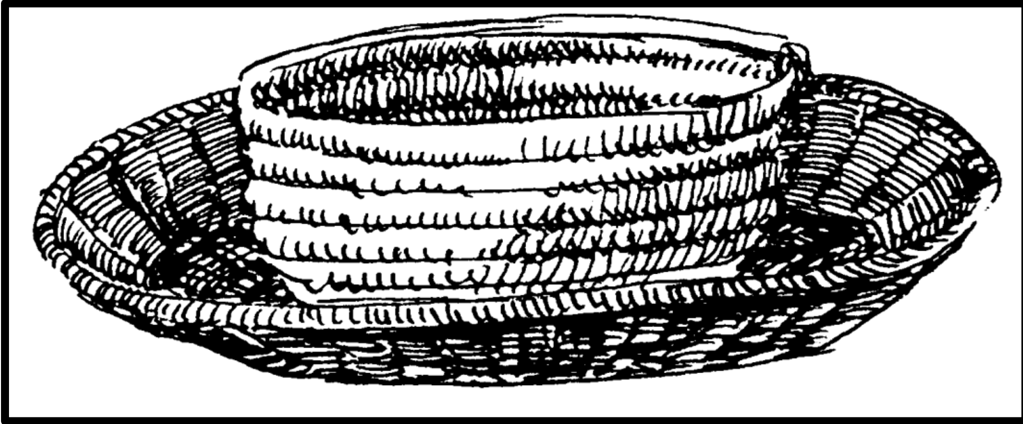
- مصنوع يدويًا ووفقًا للإجراء الموصوف أعلاه. (تُظهر الأشكال التالية بشكل أوضح اللحظات الأساسية لتصميم القطع).



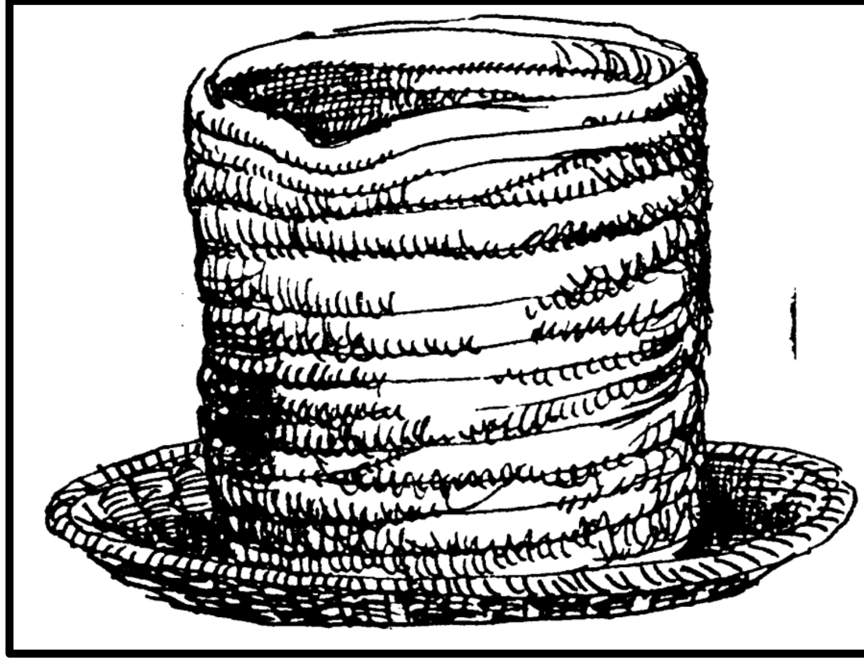
أدوات صناعة الفخار عند شعب الفانغ.



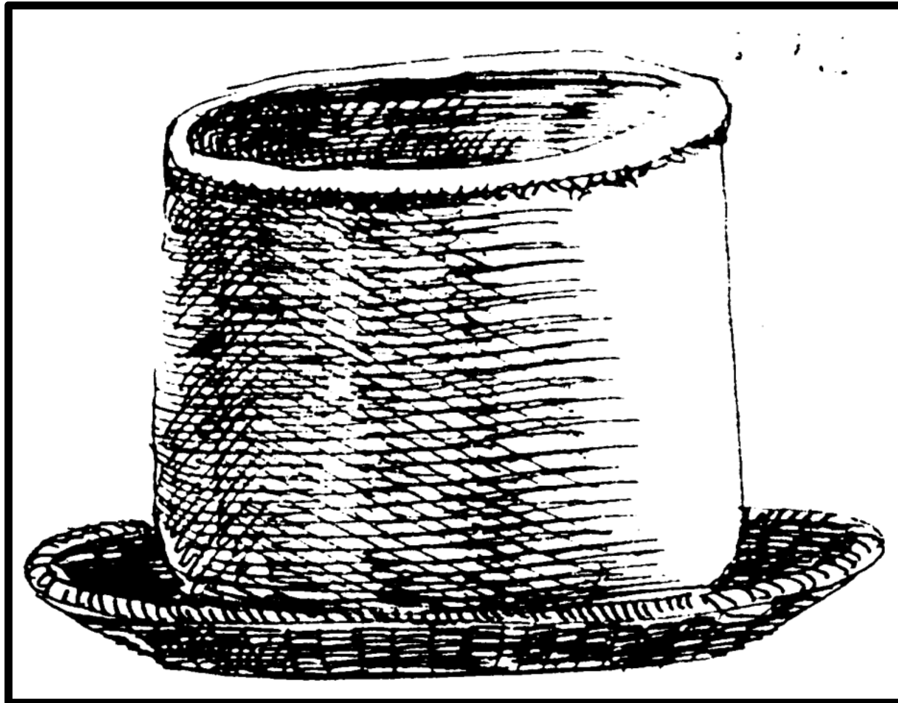
تحضير القاعدة



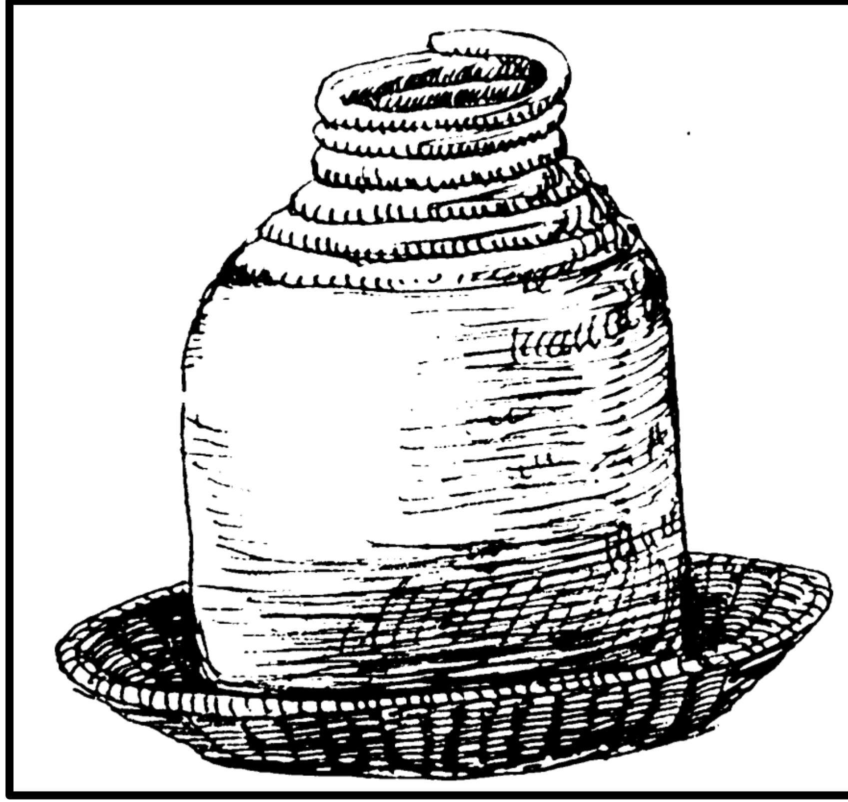
.بدء بناء جدران القطعة



القطعة الكاملة



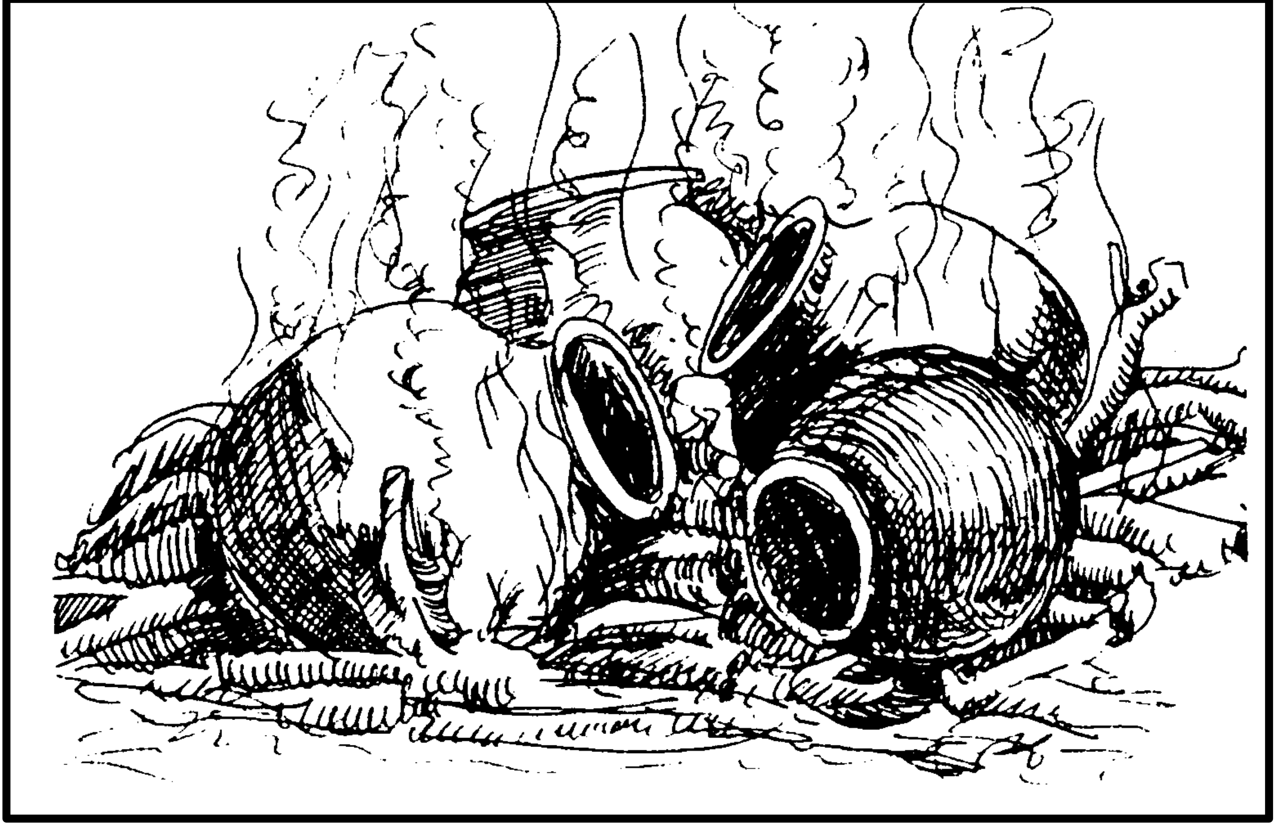
.تسوية الجدران



إضافة عنق القطعة وفمها.



القطعة النهائية بعد صقلها.



الطهي في الهواء الطلق

في هذه المرحلة، من المناسب أن نتوقف قليلاً عن دراسة تطور تقنية صناعة الفخار لنسلط الضوء على بعض الجوانب الاجتماعية التي تتضح لنا من خلال هذه النشاط.

كانت صناعة الفخار المنزلي البسيط تهدف إلى تلبية احتياجات الأسرة، ولهذا السبب، ولأنها لا تدر دخلاً مباشراً، كانت هذه المهمة تُسند إلى النساء.

في الوقت الحاضر، لا يزال هذا النمط الاقتصادي سائداً في المنطقة موضوع الدراسة في مظاهره العامة مثل إعداد الخبز، وطرز الأقمشة المستخدمة من طرف العائلة، والبحث عن الحطب لاستخدامه وقوداً.

عندما يرتبط نشاط ما بإنتاج الثروة بشكل مباشر، فإنّ الرجل هو من يقوم به. وبالتالي، ينقسم العمل إلى نوعين: العمل الذي يدرّ دخلاً (الذي يقوم به الرجال) والعمل الذي لا يدرّ دخلاً (الذي تقوم به النساء).

في مجال صناعة الفخار، استمرت هذه الممارسات بل وتكثفت. كانت النساء يصنعن الفخار المنزلي يدويًا طالما لم يتم بيعه. عندما ظهرت المخرطة، وولدت معها حركة إنتاجية كبيرة، تحول الرجل الى حرفي وتاجر.

استمرت هذه المقاربات ثابتة حتى الخمسينيات من القرن الماضي، عندما بدأت هذه الصناعة في الانحسار، على الأقل في بعض المناطق. وفي السنوات الأخيرة فقط، عندما أصبحت مربحة مرة أخرى بفضل اهتمام السياح والطلب عليها، انتقلت المبادرة إلى أيدي الحرفيين الذكور.

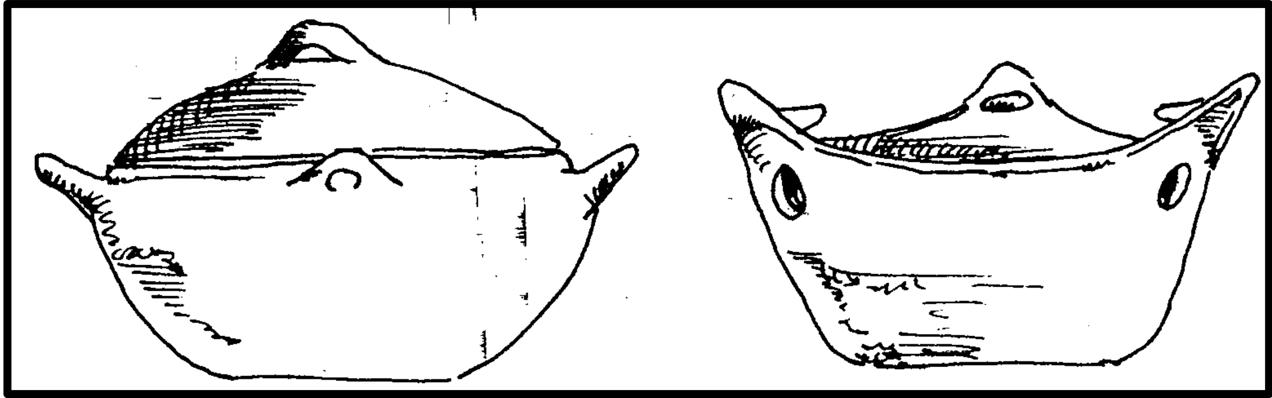
ومع ذلك، لا يزال نشاط النساء في بعض المناطق الريفية يدر دخلاً، وإن كان ضئيلاً للغاية.

في منطقة أجدير، بالقرب من الحسيمة، يقام كل يوم اثنين سوق للنساء يُحظر على الرجال دخوله. تحضره اثنتان من صانعات الفخار اللواتي ينزلن كل يوم من ورشاتهن الصغيرة في التلال المجاورة إلى السوق لبيع إنتاجهن الأسبوعي المحدود، الذي لا يتجاوز اثنتي عشرة قطعة، جميعها أواني ومواقد بسيطة الصنع.

من خلال فحص عملهن والتفسيرات القليلة التي تمكنا من الحصول عليها، يمكننا تعريف طريقة عملهن بأنها واحدة من أكثر الطرق بساطة في منطقة الريف بأكملها.

يعملن يدويًا باستخدام الطين المحلي الذي يحتوي على العديد من الشوائب، وبواسطة أسطوانات طويلة من الطين الملفوف والمُلصق، كما يمكن استنتاجه من معاينة القطع نفسها؛ ويستخدمن المواد العضوية والرماد لتجنب اللدونة المفرطة للطين التي تجعله لزجًا عند التعاطي معه.

الأوعية (الشكل 4) التي تتخذ شكل كأس ضحل مع أربعة مقابض متصلة. وتتراوح أحجامها بين الأوعية الصغيرة والقطع الكبيرة التي يبلغ قطرها 40 سم. وبعضها أعمق ولها غطاء.



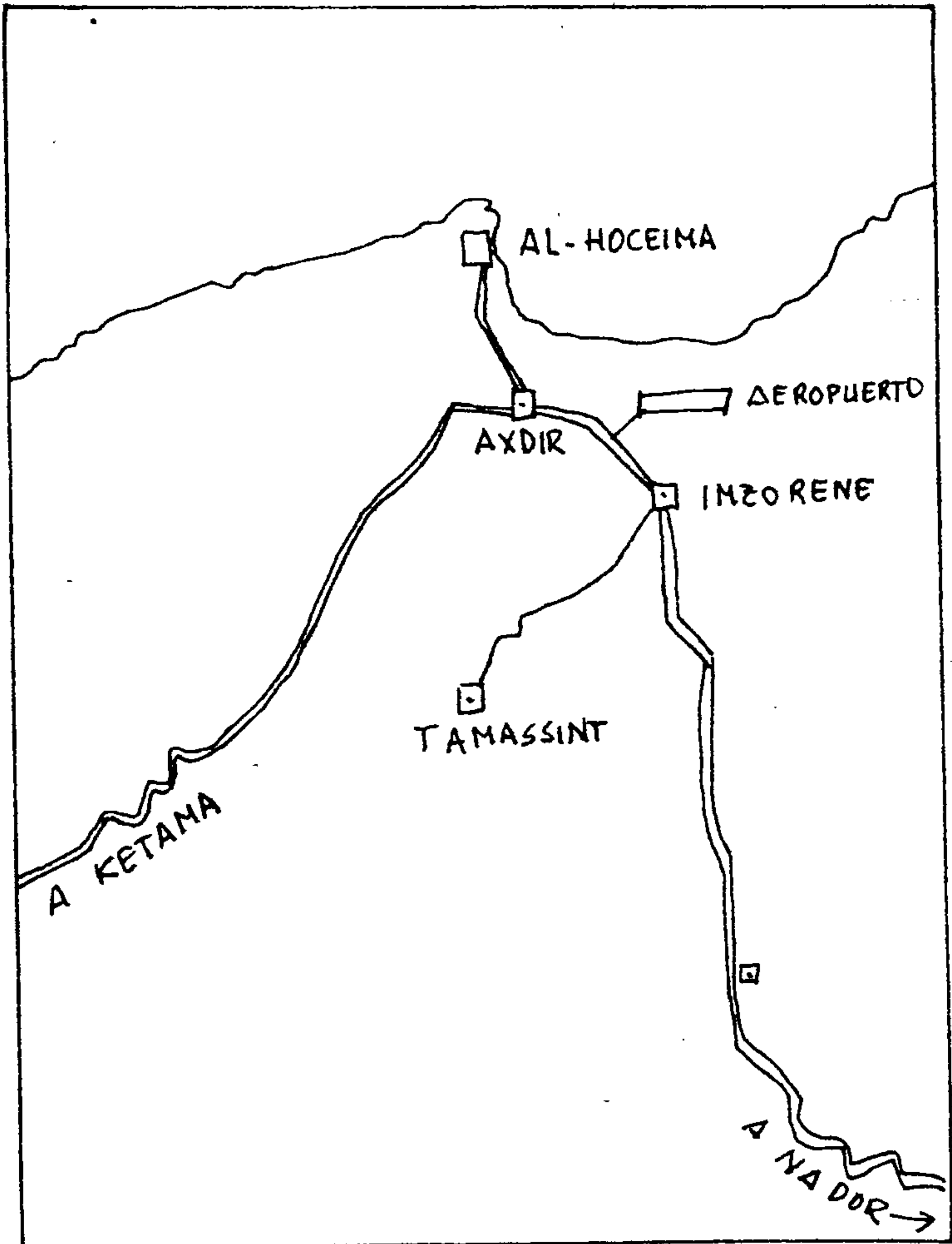
الشكل 4. فخار صنع في أجدير.

المظهر الخارجي خشن وغير مكتمل، تم غسله بقماش مبلل عندما كانت القطعة شبه جافة. الزخرفة عبارة عن خط أسود على حافة الجزء العلوي ودائرة صغيرة غير كاملة في الجزء الأوسط. تم تبييض بعض القطع باستخدام ملاط من الطين الأبيض. جرى طهيها في فرن معتدل الحرارة، حيث لم تصل درجته إلى 500 درجة مئوية.

تقدم لنا هذه العوائق التقنية وشخصية الحرفيات أنفسهن عينة فخارية بالغة الأهمية عند تحديد الظروف الاجتماعية التي ولد فيها هذا النشاط.

يعملن في منازلهن. يلبين احتياجات الجيران القريبين - حوالي عشرين منزلاً متناثراً في الجوار - ويأخذن الباقي إلى السوق مرتين أو ثلاث مرات في الشهر. إنهن الممثلات الحقيقيات لأقدم تقاليد صناعة الفخار.

الشكل 5 - ضواحي الحسيمة.



الشكل 5 - ضواحي الحسيمة.

.الأماكن التي يمكن العثور فيها على أنواع مختلفة من الفخار

نموذج واد لاو

.في سوق هذه البلدة. أيام السبت-

.في جميع أسواق المنطقة -

.في العديد من الأكشاك المفتوحة، على طول الطرق الرئيسية من سوق الأربعاء باتجاه الشمال-

.في بعض الأسواق حتى في منطقة الحسيمة-

.نموذج الحسيمة

.بين قاسيطة وميضار على قارعة الطريق-

صعودًا إلى "الهضبة" عبر الطريق التي تربط الحسيمة بالناظور، بعد جسر نهر النكور، تكثر في هذه - .المنطقة الحرف اليدوية المخصصة لهذا النشاط، وهذا الفخار عادة ما يكون بدون رسومات

.في إداردوشن ("تماسينت"). دْشَار متخصص في هذا النشاط-

في بوكيدران، عند منعطف نهرغيس (كاسيا). تسكن في هذا المكان عائلة "فَرَجِي" المنحدرة من عبيد - سابقين، والتي استقرت في المنطقة منذ أكثر من 200 عام. وتشتغل هذه العائلة في إعداد الطين (بتنقيته .وغسله)

.في الرواضي (إِبَقُّويَنْ) -

.في إزمورن، سوق الأحد -

تحت مسجد أجدير، في التلال القريبة من "سوق النساء". إنه سوق إثنين المزمة، المكان الوحيد الذي لا - .يزال يحمل اسم المرفأ السابق لإمارة النكور التي كانت قائمة خلال العصر الوسيط

.النموذج الشرقي والجنوب الشرقي

:في ضواحي الناظور

في سوق زغنغان الذي يقام يوم الخميس. يأتي الفخار من الفخّاريين الموجودين في القرى المجاورة: بني - .سيدال، سوق الثلاثاء، إلخ

:في ضواحي تازا -

.لدى التسوليين-

.في سوق تازا الذي يقام يوم الخميس -

ج) طبيعة القطع

يتناول هذا القسم الأواني الفخارية من منظورين: وظيفتها وكيفية التعامل معها في المناطق المختلفة التي يمكن تصنيف الفخار الريفي فيها.

وبالتالي، وبالارتباط مع الفقرتين السابقتين، سنحاول عرض الخصائص المحددة للمناطق الجغرافية التي تُنتج فيها هذه القطع، والظروف الاقتصادية التي تتحكم فيها، وأنماط الحياة العامة، حيث أن ذلك سيساعدنا في تحديد صنف أو "متن" هذا الفخار التي نقدمه في الفقرة التالية من هذا العمل.

للقيام بذلك، تم استخدام منهجية بسيطة ولكنها فعالة في الوقت نفسه. وتتمثل هذه المنهجية في زيارة مختلف المواقع الممثلة للمناطق المحددة؛ ومتابعة عمليات صناعة الفخار؛ والتحدث مع الحرفيين والسماح لهم بإخبارنا عن الدوافع التي تدفعهم إلى صناعة قطعهم الفنية، وربط كل ذلك بالنموذج الاجتماعي والاقتصادي الذي ينتمون إليه.

تم تحديد المناطق في البداية بشكل نظري عند إعداد خطة العمل، ولكن بعد ذلك، خلال الاتصالات الشخصية التي تمت أثناء التنقلات، تم إجراء تعديلات متكررة.

ويمكننا تلخيص ذلك على النحو التالي:

1) المنطقة الغربية التي تشمل كل الجزء الواقع غرب الشاون. فخار واد لاو.

2) إقليم الحسيمة.

3) الجزء الجنوب الشرقي من الريف

1) - فخار واد لاو

إلى الغرب، يمتد الريف إلى أقاليم تطوان ويصل تقريبًا إلى طنجة نفسها. في هذه المنطقة، سيكون واد لاو هو المركز المدروس، نظرًا لأن نوع الفخار الذي ينتجه هو الأكثر تمثيلاً للمنطقة، كما أن انتشار استخدامه يصل إلى نقاط بعيدة مثل سوق الأربعاء إلى الجنوب، أو الحسيمة نفسها إلى الشرق.

صناعة الفخار هذه، التي يمكننا أن ننسب إليها إنتاج كامل المنطقة الغربية مع انتشار قوي في المناطق المجاورة، قد حققت انتشارًا واسعًا بفضل جودتها الفنية واستخدامها الواسع في المطابخ بالمنطقة.

تتميز بخطوطها البسيطة وأسطحها المصقولة والمسطحة ولونها الأحمر اللامع الذي يجعلها تبرز في الأكشاك المفتوحة التي تنتشر على جانبي الطرق الرئيسية بين الخزف المزجج والمزخرف على الطراز العربي التقليدي.

للتعرف بشكل مباشر على عملية صناعة الفخار محليًا، ركزنا عملنا في البداية على واد لاو الذي يبعد حوالي 40 كم عن تطوان باتجاه الساحل الجنوبي الغربي، وخاصة في سوقه الأسبوعي الذي يقام أيام السبت.

وكان ذلك بسبب أن البلدة تستقبل في تلك المناسبة الفلاحين من منطقة واسعة من المناطق المحيطة بها؛ وأن الأنماط الاجتماعية والاقتصادية هي في الأساس قروية، وأننا كنا على علم بأن الحرفيات يحضرن شخصياً لبيع منتجاتهن في السوق.

وبالفعل، بمجرد وصولنا إلى السوق، سرعان ما لاحظنا أن الشروط المتوقعة قد تحققت. دخلنا في محادثة مع الخزافيات، وشرحن لنا عملهن بالعبارات التالية:

-كن يقمن بعملهم بالكامل يدويًا.

-الزخارف قليلة جدًا، وهي مجرد نقوش.

- يتم الطهي في أفران بسيطة وأخرى أكثر تطوراً.

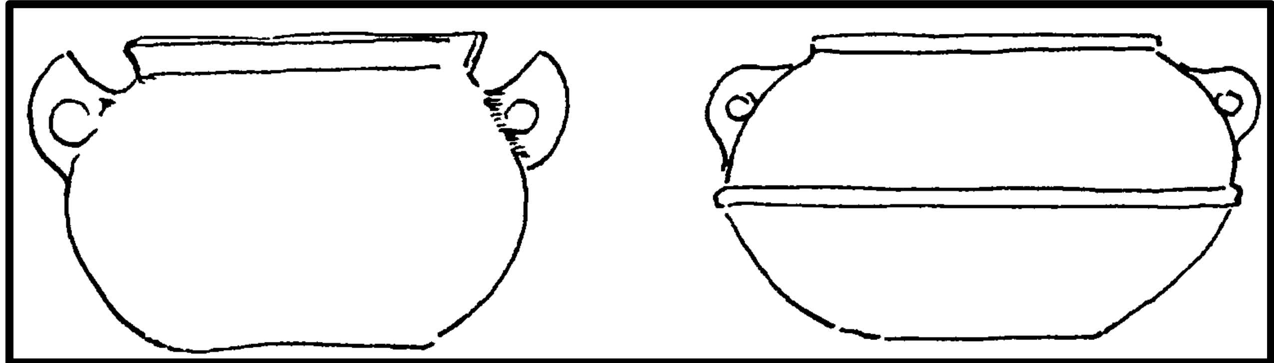
نظرًا لكونها أدوات مطبخية في الأساس، فإن الأشكال الأساسية (القدور، والأواني، وأوعية السوائل) هي السائدة فيها، ولكن في الوقت نفسه تم تطوير نماذج مقلدة من حرف يدوية أخرى. وهكذا نجد أباريق الشاي، والأكواب الصغيرة للشاي، والصواني ذات الثلاث أرجل، وحوامل الشموع على شكل شمعدانات بسيطة، وحتى بعض القطع ذات التصميم الحديث التي ترتبط بأسطوانات الغاز الطبيعي لتعمل كموقد.

سنركز في هذا العمل على المجموعة الأولى فقط، لأننا نعتقد أنها تلخص الخصائص الأكثر أهمية، في حين أن قطع المجموعة الثانية تقتصر على نسخ قطع معدنية أو زجاجية بشكل فجّ على الطين.

بناءً على أن الأشكال تعتمد بشكل واضح على وظيفة القطع الخاصة بالطهي، يمكننا وضع التصنيف التالي:

(أ) - أوعية كروية الشكل من نوع القدور (كَدْرَة

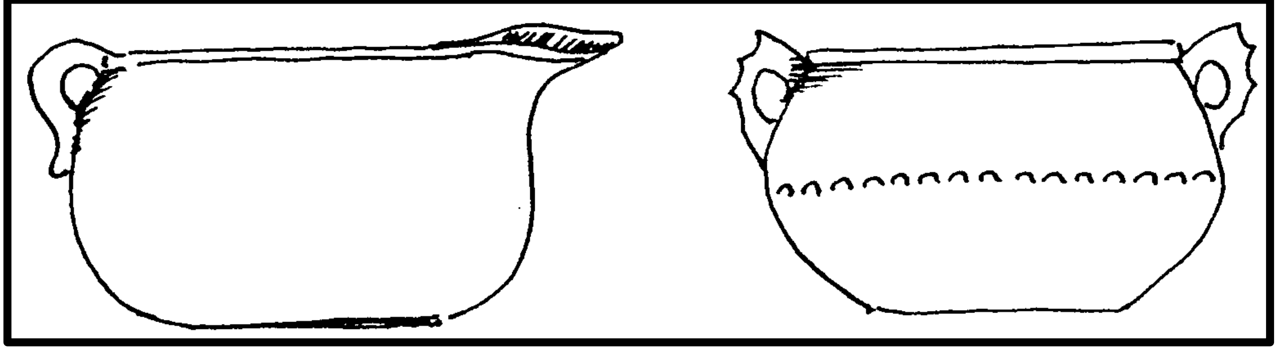
وهي متوسطة الحجم، بسعة تتراوح بين 2 و5 لترات؛ ذات شكل كروي مسطح، مع مقبضين جانبيين مدببين وفتحة دائرية بارزة. (الشكل 6)



الشكل 6. - قدور من نوع واد لاو

ب) - أوعية مشابهة للمجموعة السابقة ولكن لها وظائف محددة فيما يتعلق بحفظ السوائل، وخاصة الحليب .((حَلَّاب

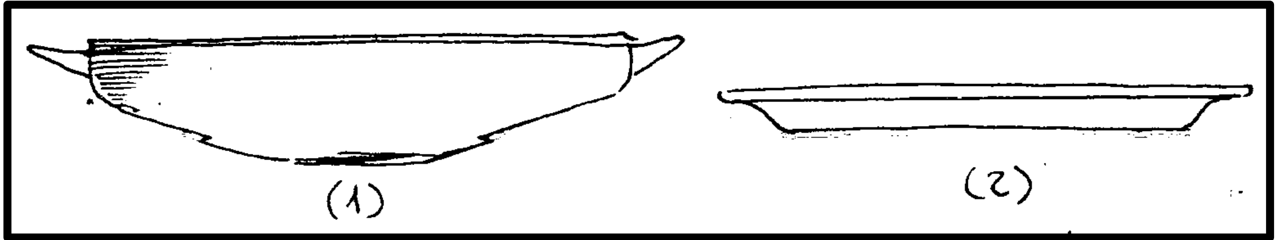
وقد تم تعديل الأشكال قليلاً، حيث ظهرت أواني ذات مقبض واحد وفتحة على شكل إبريق (غَرَّاف مخصص لسكب السوائل)، أو قطع ذات فتحة واسعة جداً ومقبضين تستخدم للحلب (الشكل 7.



الشكل 7

.ج) - أواني الطبخ والأطباق الكبيرة المسطحة

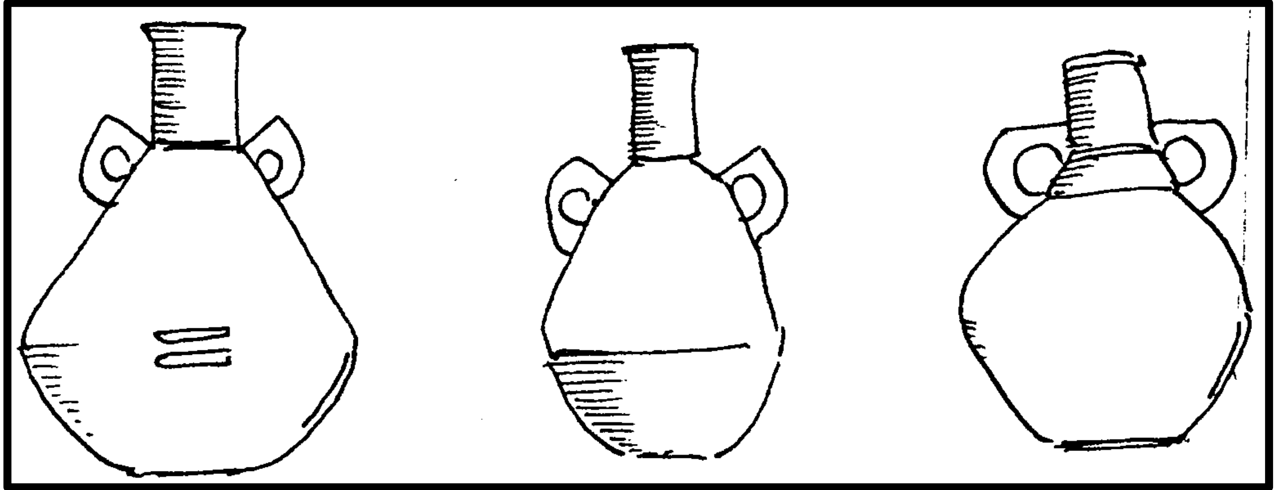
وهي الأكثر شيوعًا بين الأواني المستخدمة في مطابخ المنطقة، وتستخدم كقدور (طواجن) أو مقالي. عادة ما تكون دائرية الشكل، ولكن هناك أيضًا أنواع بيضاوية الشكل. وهي قليلة الارتفاع ومزودة بمقابض مثلثة الشكل، ومثقوبة في بعض الحالات. (الشكل 8)



.الشكل 8.- 1. طاجين، 2. مقلات

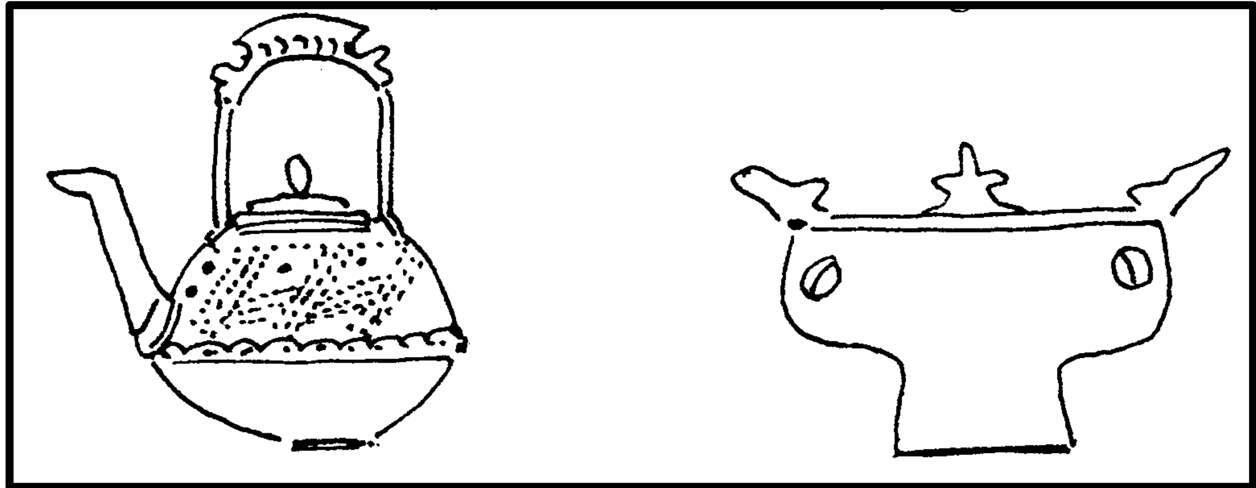
(د).-أواني لحفظ السوائل من نوع الجرة (القُلَّة

مخصصة لاحتواء (الزيت) أو نقل (الماء) السوائل. تتكيف أحجامها مع هذه المهام. النماذج الأكثر شيوعًا هي: (الشكل 9)



الشكل 9 - أوعية من نوع الجرة.

(هـ) أخيرًا، المجموعة المتنوعة ذات الوظائف المختلفة التي تحاكي القطع المعدنية في الطين (الشكل 10).



الشكل 10

- من الناحية الفنية، تحافظ هذه الصناعة على التقاليد الحرفية المذكورة في البداية، وترتبط بمجموعة فرعية من منطقة الحسيمة، والتي سيتم وصفها أدناه.

2- صناعة الفخار في الحسيمة.

في منطقة واسعة محيطة بهذه المدينة، تطورت صناعة الفخار التي غالباً ما أطلق عليها اسم "الفخار الريفي" بسبب زخارفها الملفتة للنظر وشكلها المميز، وغالباً ما يتم تجاهل بقية أنواع الفخار في منطقة الريف.

ولكن أثناء القيام بهذا العمل، اكتشفنا نوعين على الأقل: الأول هو النوع المذكور أعلاه ذو الشكل الكروي الصغير الحجم وذو الزخارف الهندسية الملفتة للنظر والمعقدة، والثاني هو أواني المطبخ مشابهة لتلك الموصوفة في قسم واد لاو ولكنها أكثر بساطة وقروية. إنه الفخار الريفي المذكور عند الإشارة إلى سوق أجدير (الحسيمة).

هذا الأخير يحاكي أواني الطبخ ذات الفم العريض والارتفاع المنخفض، ويتم إنتاجه على نطاق محلي ومحدود للغاية.

إن صناعة الفخار ذات الزخارف الهندسية من الحسيمة هي الأكثر انتشاراً، ويمكننا تلخيص خصائصها على النحو التالي:

- صغير الحجم
- الاستخدام للزينة
- أشكال متنوعة جدًا.
- رسم "قديم"، باستخدام صبغة طبيعية.

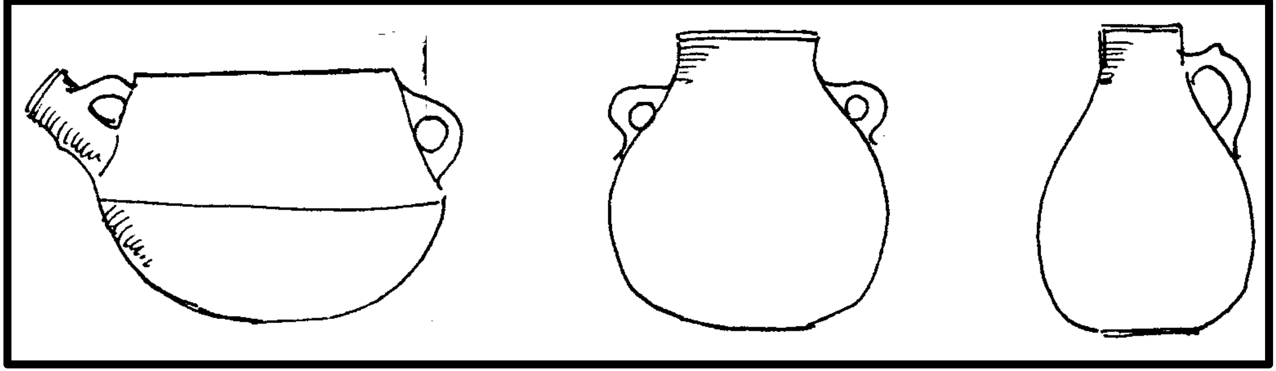
بهذه الكلمات القليلة وصفه لنا خوان رومان، الباحث المحلي والمطلع على الماضي الثقافي للمنطقة، ونحن نؤيد هذا الوصف لأنه يبدو دقيقًا وواضحًا.

إنه في الواقع فخار صغير الحجم يبدو أن الغرض الرئيسي منه هو الزينة، ولكنه يستخدم في الوقت نفسه بشكل متكرر كأوعية للاستعمال العام في الأمور المتعلقة بالحياة الرعوية. معظمها مرتبط بصناعة الألبان. هناك أوعية حلب (حَلَّاب) ذات فوهة واسعة وقمع سميك؛ وأكواب للحليب الرائب والزبدة وما إلى ذلك، وبالمثل توجد أواني صغيرة كروية الشكل مخصصة لحفظ العسل، ويسمح شكلها بتغطية الفوهة بواسطة قطعة قماش مربوطة عليها. وتنتشر المقابض العمودية على كلا الجانبين والتي تسمح بتعليق القطعة بواسطة خيط.

مجموعة أخرى تمثل أباريق صغيرة وأوعية ذات مقبض واحد عمودي تشبه بوضوح الأوعية ذات الحواف المنحنية من العصر البرونزي المتوسطي. كما توجد أوعية صغيرة كروية ذات فوهة ضيقة ومقبض واحد تشبه الأوعية المصنوعة من القرع والمخصصة لتخزين السوائل، وخاصة الزيت.

أخيرًا، مجموعة متنوعة جدًا في أشكالها تضم أوانيًا مختلفة مثل أباريق، وسلطانيات صغيرة بغطاء، وأوعية، وأطباق مسطحة جدًا بمقبض مثقوب، إلخ.

من الناحية الشكلية، لا سيما في المجموعتين الأوليتين، تظهر بوضوح تقاليد صناعة الفخار التي تعود الى العصر الحجري الحديث. نجد الأشكال الكروية والمخروطية في معظم الحالات، كما هو الحال عادةً في الفخار المصنوع يدويًا، على عكس الأشكال الأسطوانية والأنبوبية الشائعة في الفخار المصنوع على المخرطة.



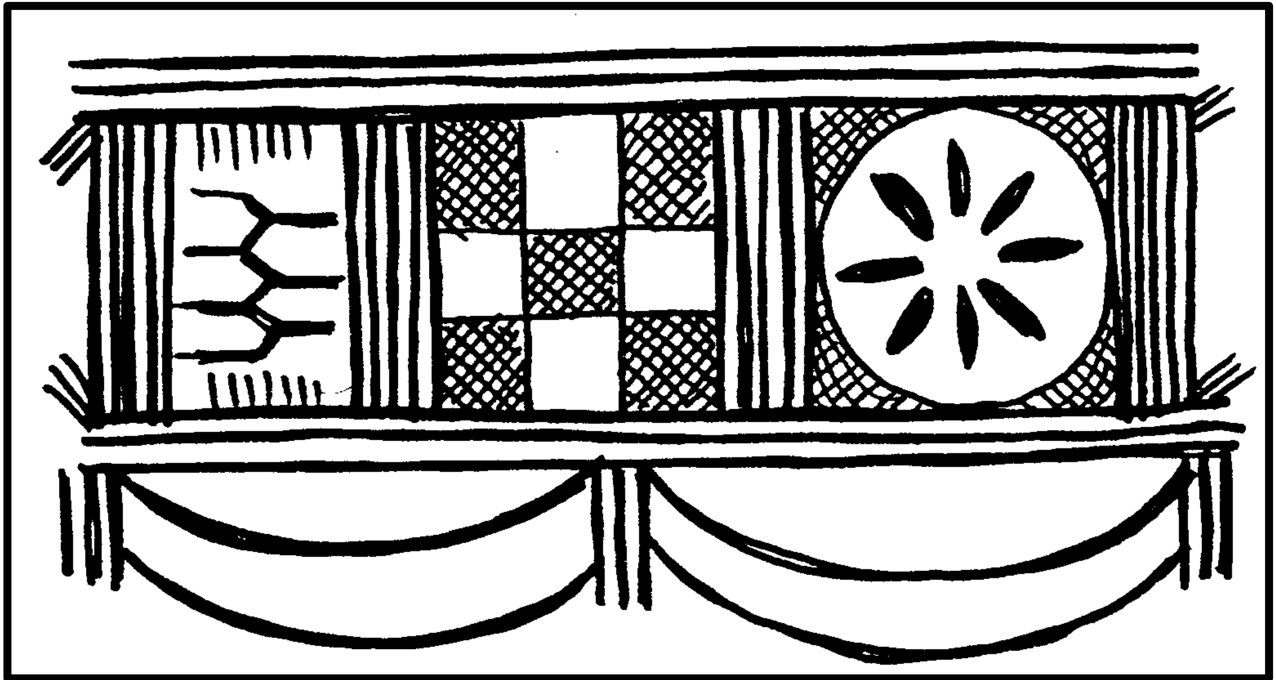
.الشكل 11 - الفخار الحسيمي

.تتسم الزخارف بأسلوب هندسي تهيمن عليه الخطوط المستقيمة المجمعة في حزم

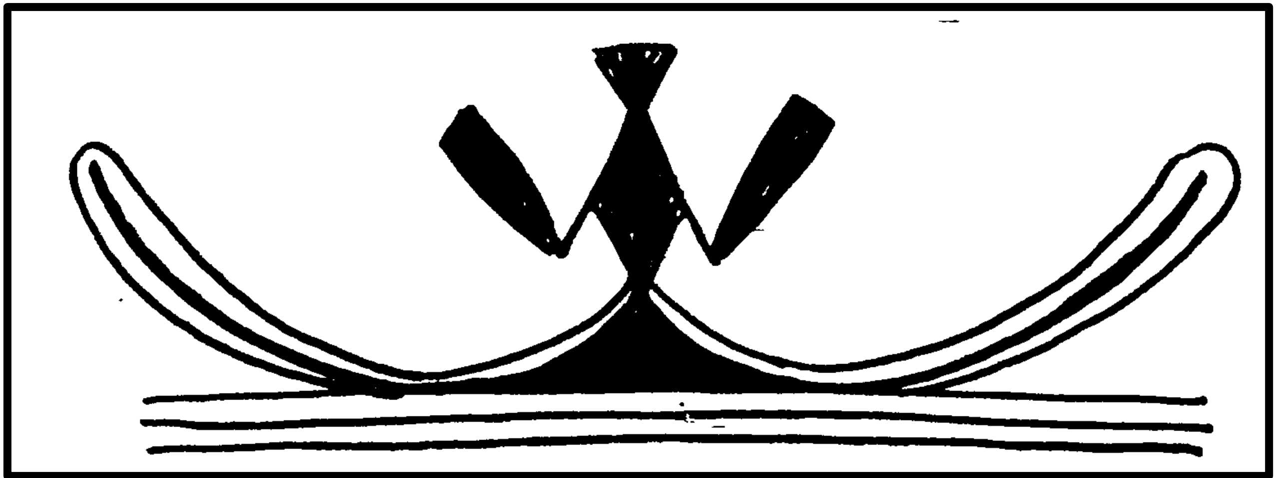
عادة ما نجد ثلاثة أنواع مختلفة من الزخارف حسب الطريقة التي يتبعها الخزاف في توزيعها على سطح القطع.

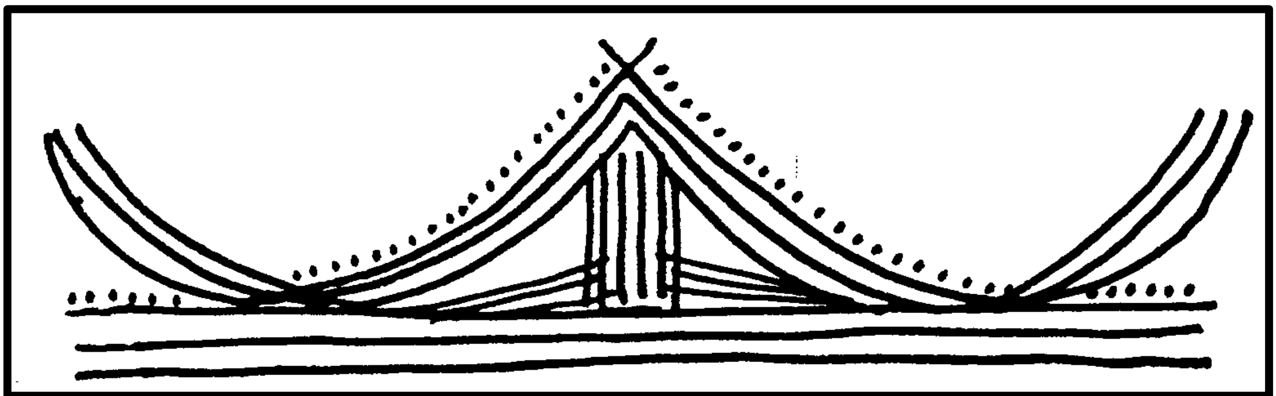
في المجموعة الأولى نجد الزخارف موزعة على شرائط أفقية تفصل بينها بواسطة مجموعة من الخطوط المتوازية، على غرار "الشرائط" الشائعة في الزخارف ما قبل تاريخية. وهذا يؤدي إلى وضع العناصر المختلفة بشكل عمودي على الوعاء بحيث توضع الزخارف الأكثر تعقيدًا في شريط مركزي عريض يشغل الجزء الأكبر من قطر الوعاء، وغالبًا ما تكون هذه الزخارف على شكل مربعات تشبه " رقعة الشطرنج " قد تحتوي أو لا تحتوي على زخارف أصغر داخلها. في بعض الأحيان، توضع داخل القواعد زخارف على شكل ورود تقلد بشكل تخطيطي تاجًا من " التويجات " في شكل دائرة. (الشكل 12)

عادة ما يحمل الجزء العلوي من الوعاء زخرفة مشتركة بين جميع الأواني، والتي تمثل، وفقًا لتعبير الخزافين أنفسهم، رسمًا مميزًا للأسرة أو القبيلة (الشكل 13).



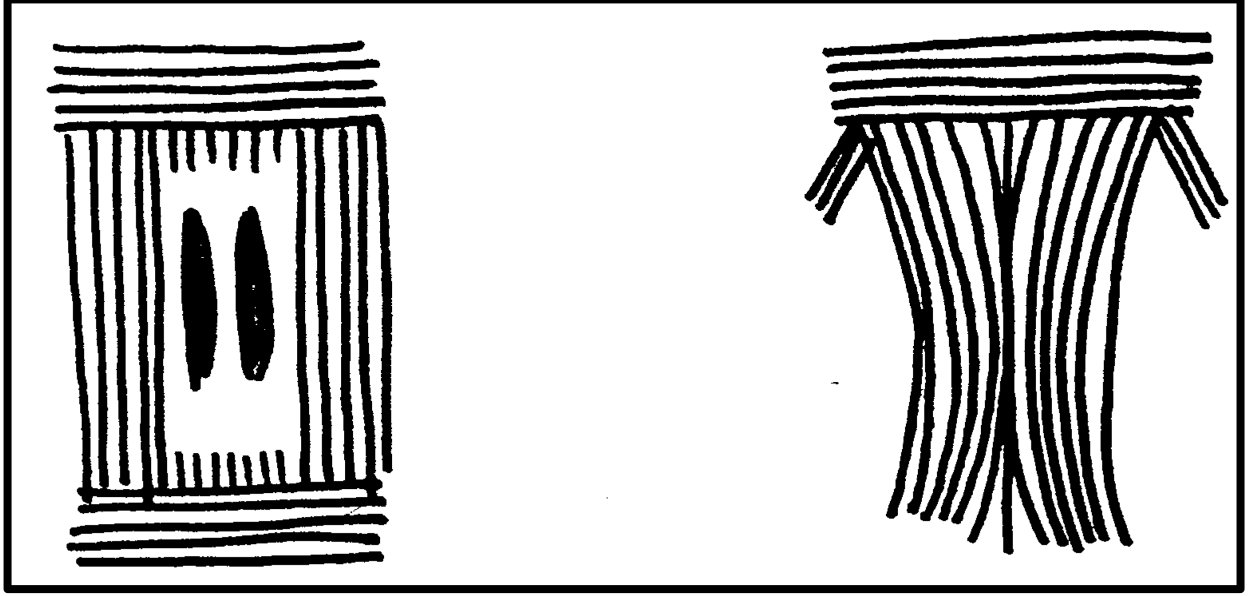
الشكل 12 - زخارف من الحسيمة.





.الشكل 13 - شعار قبيلة آيث ورياغر

- بالارتباط مع هذه المجموعة الزخرفية الأولى، تظهر مجموعة أخرى تحافظ إلى حد ما على التقسيم المكاني إلى شرائط، ولكنها معززة ببروز واضح للخطوط العمودية التي تتجمع في حزم قوية من الخطوط المتقاربة والمنحنية قليلاً، والتي تبدو وكأنها تحاكي حزم من سيقان النباتات (الشكل 14).

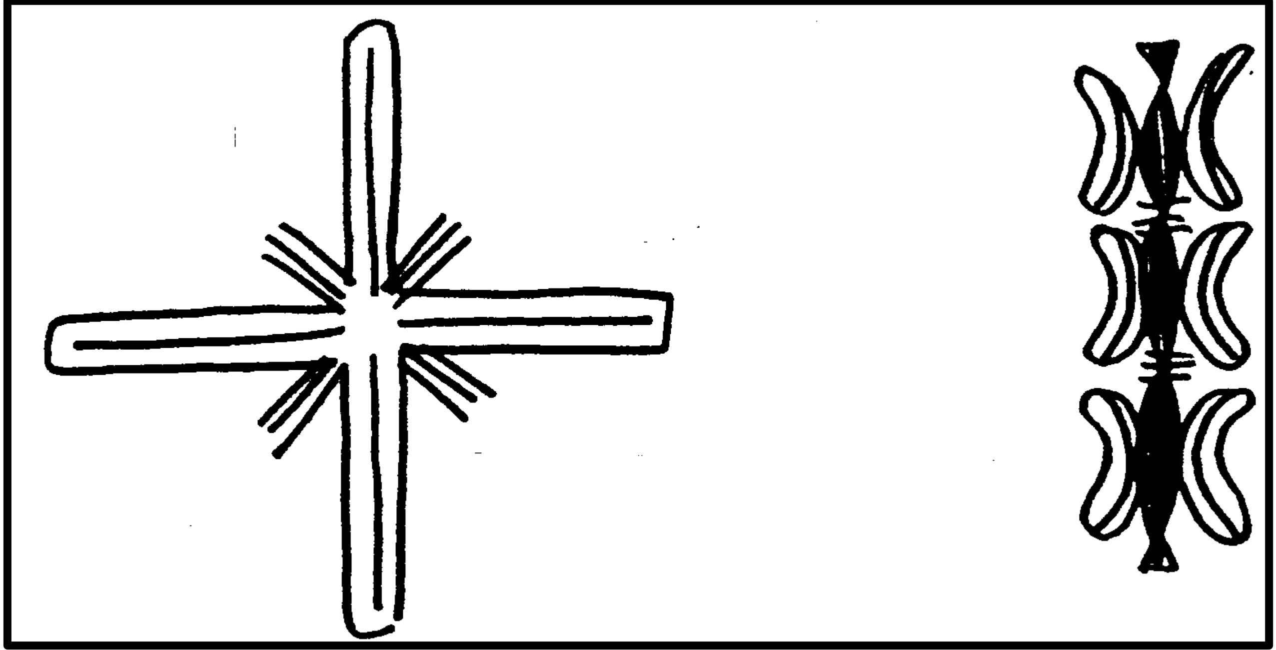


.الشكل 14

- مجموعة ثالثة تشكل مجموعة زخارف الأواني بطريقة مختلفة تمامًا. لا تقسم السطح إلى أشرطة، بل تملأه بعناصر منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض، مما يجعل المساحة أقل ازدحامًا.

من ناحية أخرى، فإن الأشكال التي تستخدم هي أشكال تخطيطية تمامًا، على الرغم من أنها تدل بوضوح على رمزية تصويرية.

هذا الزخرفة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالعناصر التكميلية للقطعة نفسها، لا سيما المقابض، حيث تشكل نقاط التلامس نقطة انطلاق للزخارف. غالبًا ما تظهر حزم من الخطوط تنطلق من نقطة واحدة لتتفرع وتشكل نجومًا ذات أربعة أذرع. وتكملها رسومات تتكون من تكرار متداخل لعنصر واحد. (الشكل 15)



.الشكل 15

بشكل عام، يبدو أن هذه التراكيب مرتبطة بشكل واضح بالقبائل المختلفة، حيث يتم استخدام رسومات تخطيطية كعلامات لتحديد الهوية، ولا يزال من الشائع اليوم رؤية نساء من سن متقدمة يحملن شعار العائلة .موشومًا على ذقنهن

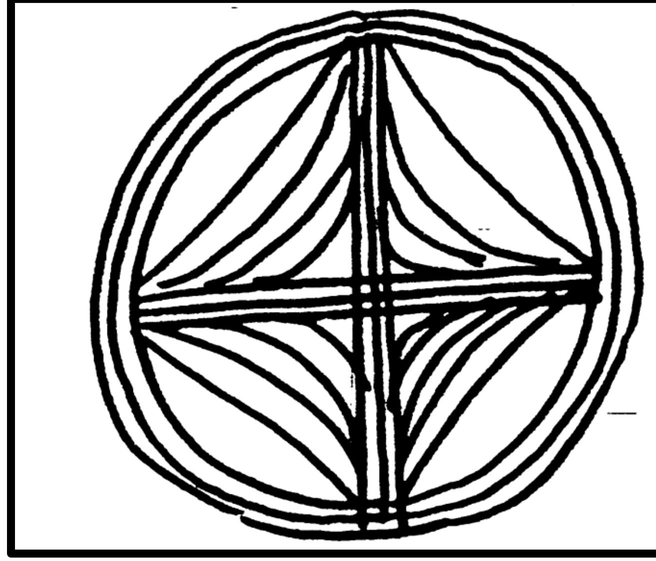
أكثرها شيوعًا في زخرفة فخار المنطقة هي تلك التي تنتمي إلى قبيلة آيث ورياغر، حيث تشغل هذه القبيلة .الأراضي المحيطة بمدينة الحسيمة

كما هو الحال في الفصل المتعلق بالأشكال، فإن العناصر الزخرفية وطرق التنفيذ، على الأقل بالنسبة للمجموعتين الأوليين المذكورتين، ترتبط بوضوح بالتقاليد المتوسطية القديمة التي تعود أقدم أمثلة معروفة .لها إلى الزخارف الهندسية القديمة في المنطقة الشرقية من هذا البحر

قد تكون هذه التراكيب بديلاً مرسوماً للزخارف المنقوشة السابقة عندما نشير إلى الخطوط الأفقية المملوءة .بمجموعات من الخطوط التي تمثل شكلاً متكرراً

ومع ذلك، في بعض الجوانب المحددة، إذا نظرنا إلى الزخرفة ككل، يمكننا أن نلاحظ أن الخطوط تحاول أن .تعيد إنتاج تصاميم صناعة السلال في الطين، وهي أقدم بكثير من الفخار نفسه

تذكرنا عناصر مثل خطوط الروافد العمودية في الشكل 14 بمظهر السلال التي لا تزال تُصنع في المنطقة حتى اليوم. تحاكي الأجزاء السفلية من العديد من الأواني، حيث الزخارف أقل كثافة، بشكل دقيق قيعان .السلال، انطلاقًا من سلسلة من السيقان الشعاعية المكملة بخطوط لولبية (الشكل 16)



الشكل 16.

نحن أمام مزيج من العناصر المستمدة من دوافع مختلفة للفَخَّاري. من ناحية، نجد بقايا تقليد قديم يحافظ على أسلوب الصناعة الخاص بالبحر الأبيض المتوسط، ومن ناحية أخرى، المساهمات الشخصية التي تحدد هوية العشيرة الإثنية التي ينتمي إليها.

3). فخار جنوب شرق الريف

يتميز الجزء الشرقي من سلسلة جبال الريف بخصائص جغرافية واقتصادية أكثر رحابة. بعد تجاوز المرتفعات المحيطة بالنكور، نصل إلى هضبة تقع بين الجبال وتقودنا إلى الناظور. من هذه النقطة، وباتباع الطريق الطبيعي المؤدي إلى الجنوب الغربي، نصل إلى تازة وفاس. هذا هو الطريق الذي سلكته الغزوات والثقافات للوصول إلى قلب المغرب، متجاوزة الطرق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط.

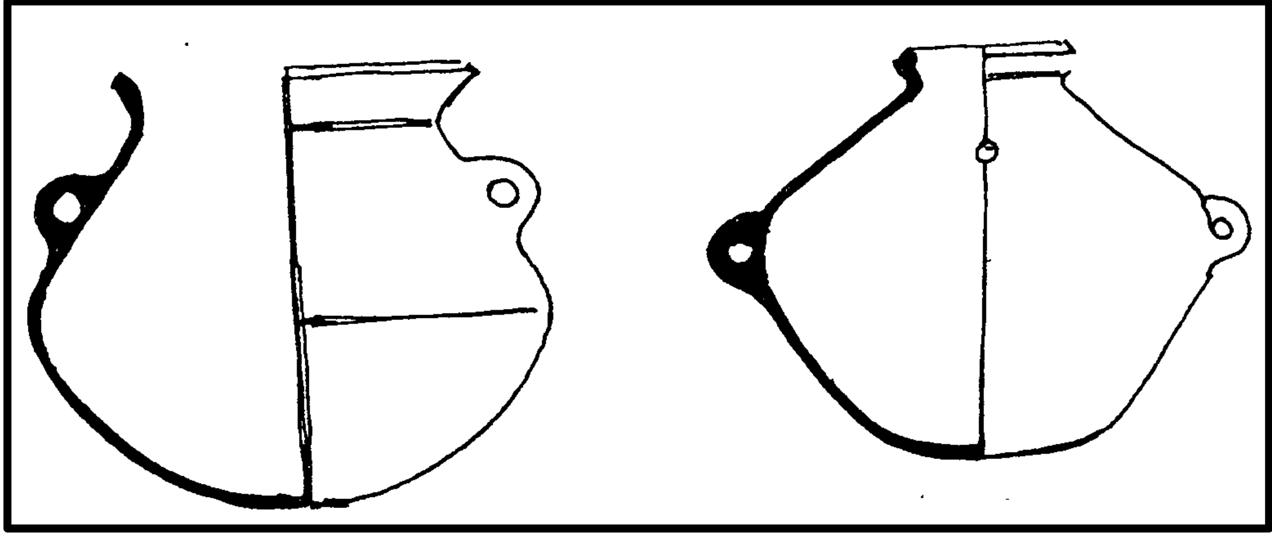
لهذا السبب نجد أنفسنا في منطقة تحتوي على بعض الخصوصيات العامة.

في مجال صناعة الفخار، لا يمكننا رسم الحدود بوضوح لأن التأثيرات، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، تظهر دائمًا. لذلك، على الرغم من أن صناعة الفخار في هذه المنطقة تتم عادةً باستخدام المخرطة، إلا أن تقنيتها تعود إلى مرحلة أكثر قدماً من هذا الفن.

تقوم ورشات صناعة الفخار المتواضعة الواقعة في ضواحي زغنغان، على بعد 7 كيلومترات من الناظور، بعملها باستخدام "أقراص دوارة" تعمل يدويًا، وهي تقنية بدائية للغاية ولكنها تحقق نتائج مرضية.

خلال جولتنا في المنطقة بأكملها ثم في وديان جنوب الريف حتى تازة، لاحظنا أن الأشكال التقليدية لا تزال قائمة فيما يتعلق بأواني المطبخ (القدور والمقالي وغيرها)، بل إن بعض القطع مازالت مصنوعة يدوياً، مثل الأوعية الكبيرة المكونة من قطعتين متراكبتين والمستخدمة في إعداد الخبز، لا تزال موجودة حتى اليوم.

في محيط زغنغان، تنتج قرى مثل بني سيدال فخار موجه للاستهلاك المحلي الذي يُباع في الأسواق المختلفة. القطع الأكثر تميزاً هي الأواني الكبيرة، والأباريق المسطحة ذات القطر الواسع؛ والأواني ذات الشكل المركب مع الجزء السفلي نصف كروي والجزء العلوي مخروطي الشكل، مع فوهة محدبة ومقبضين جانبيين سميكين. تشبه الحلابات الأباريق المنخفضة ذات البطون الكبيرة والفوهات الصغيرة والمسطحة، والصنبور غير البارز. (الشكل 17).

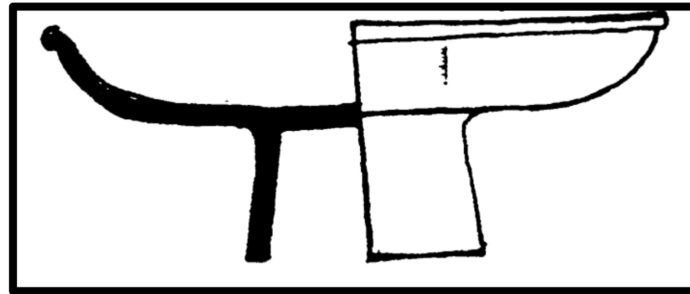


الشكل 17

المظهر الخارجي مشابه في شكله لفخار واد لاو المصنوع باستعمال الملعقة، لكن طينه أكثر سواداً.

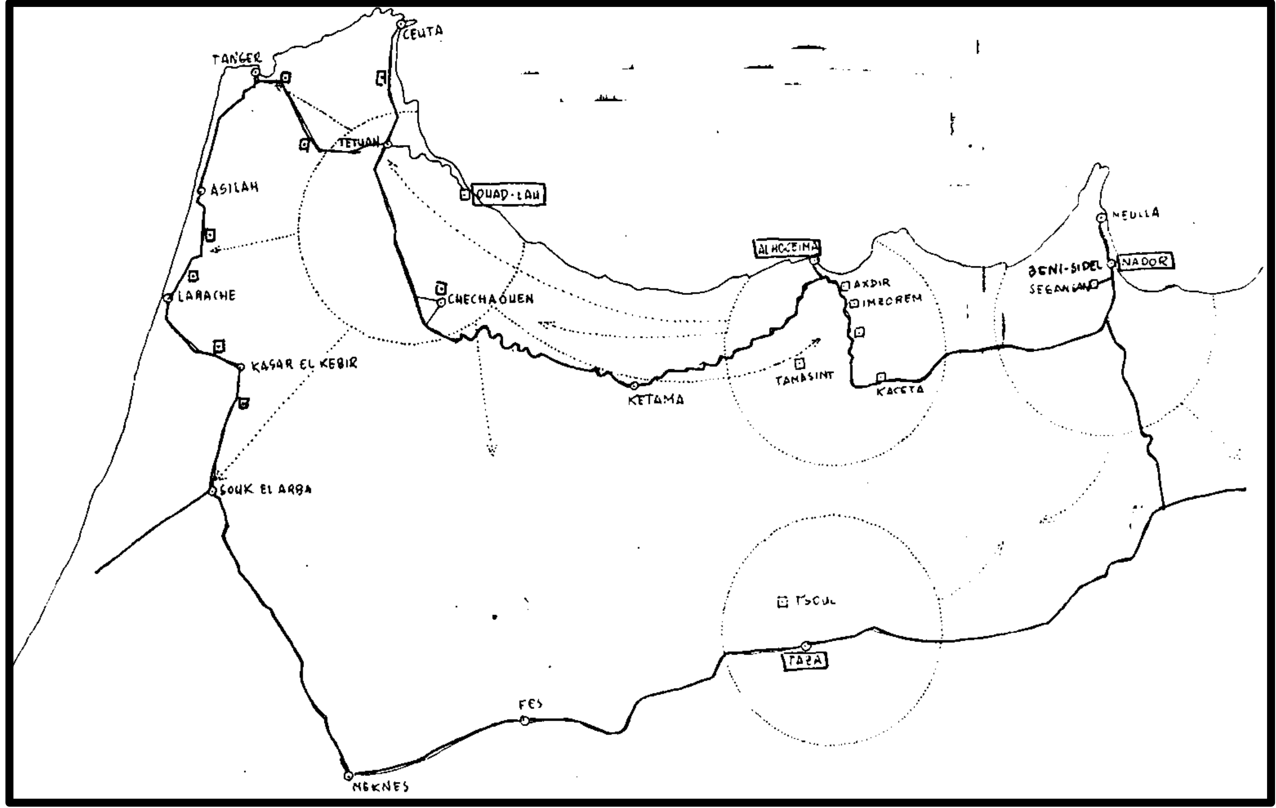
كما نجد أيضًا المقلات الكبيرة، ولكنها في هذه الحالة مصنوعة على المخرطة.

ومن القطع المميزة طبق فواكه ذو قاعدة عالية (الشكل 18) مزين بزخارف هندسية.



الشكل 18.

ببطء، ومع ابتعادنا عن المنطقة، تتلاشى خصائص الفخار الريفي حتى تختفي تمامًا، ليحل محلها الفخار المصنوع على المخرطة.



مناطق توزيع فخار الريف

د) تصنيف الأشكال الأكثر انتشارًا وأهمية

تقدم صناعة الفخار في هذه المنطقة بأكملها مجموعة من النماذج التي يمكن العثور عليها في جميع أنحاءها، ولكن من ناحية أخرى، تقدم كل منطقة من المناطق التي تمت دراستها في هذا العمل أمثلة فريدة من حيث الشكل والزخرفة.

تحاول الجداول التالية تلخيص هذه الاختلافات، وتصنيف القطع في مجموعات متجانسة قدر الإمكان.

يتضمن الأقسام التالية:

1.- فخار واد لاو.

1.1 أشكال كروية.

1.2 الأطباق والأواني.

1.3 الأباريق.

2.- فخار الحسيمة.

.مع زخرفة مطلية 2.1

الأشكال الكروية 2.1.1

بفتحة واسعة (1 و 2 و 3 و 4)

(5) متوسط الفم

(6) ذو فوهة ضيقة

أشكال أخرى 2.1.2

.بدون زخارف 2.2

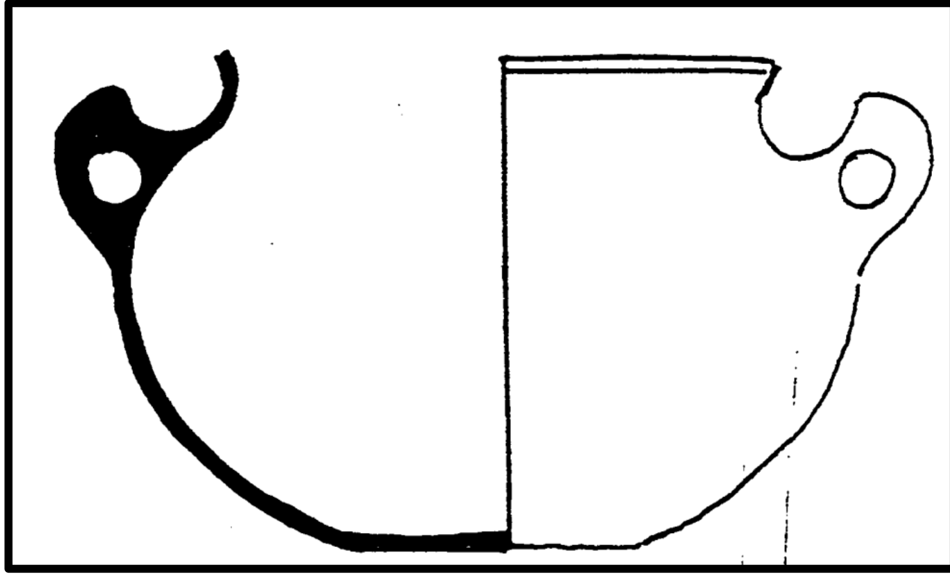
.لوحة الأشكال الزخرفية لفخار الحسيمة - .3

.مقارنة القطع الشائعة في جميع أنحاء المنطقة المدروسة (المواقد ، المجامر) - .4

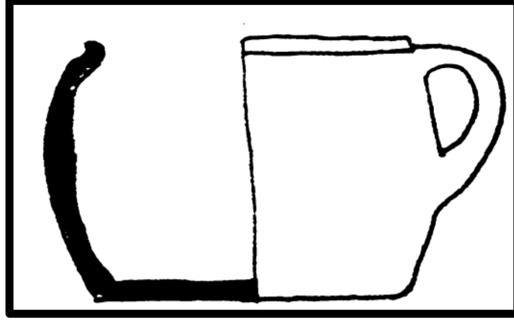
.مقارنة بين الأشكال الحالية لفخار الحسيمة والأشكال التاريخية الأخرى - .5

فخار واد لاو -1

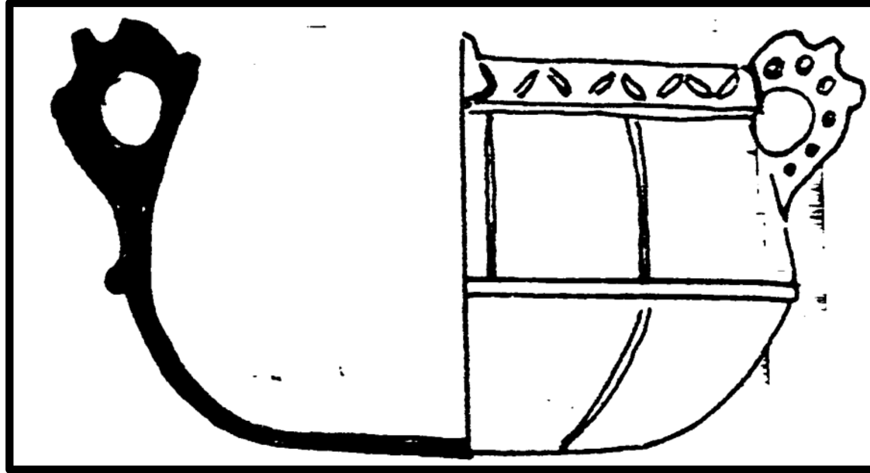
كروي الشكل - 1.1



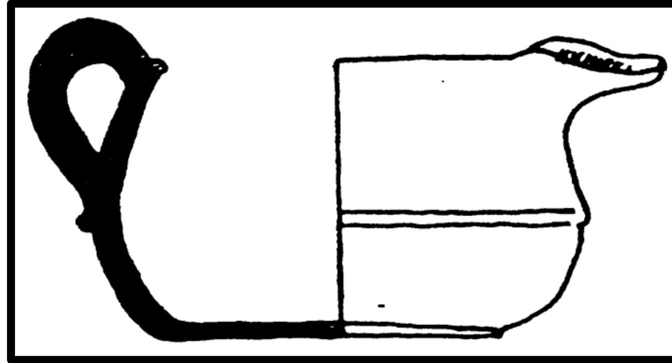
كَدرة



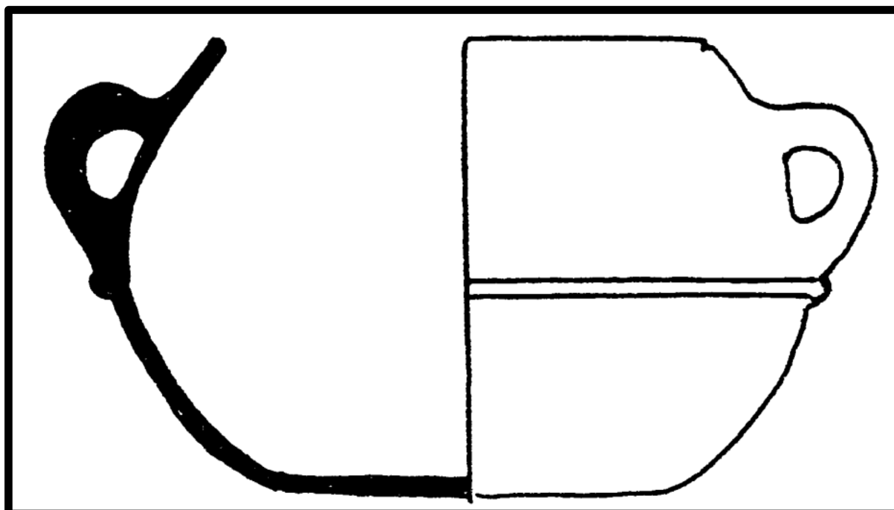
غَرَّاف



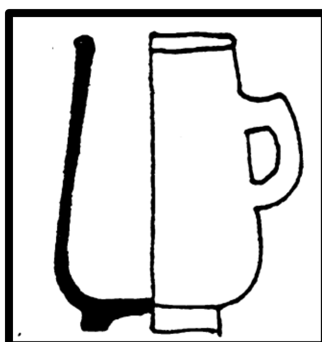
حَلَّاب



غَرَّاف

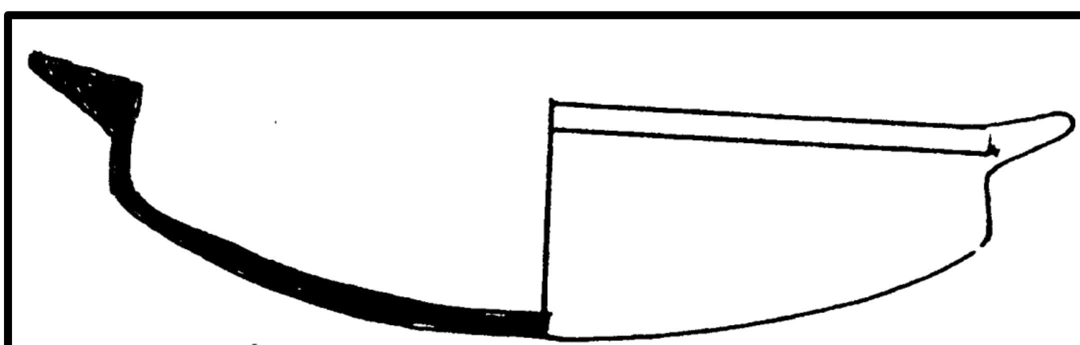


كَدرة



غَرَّاف

الأوعية والأطباق - 1.2



طاجين

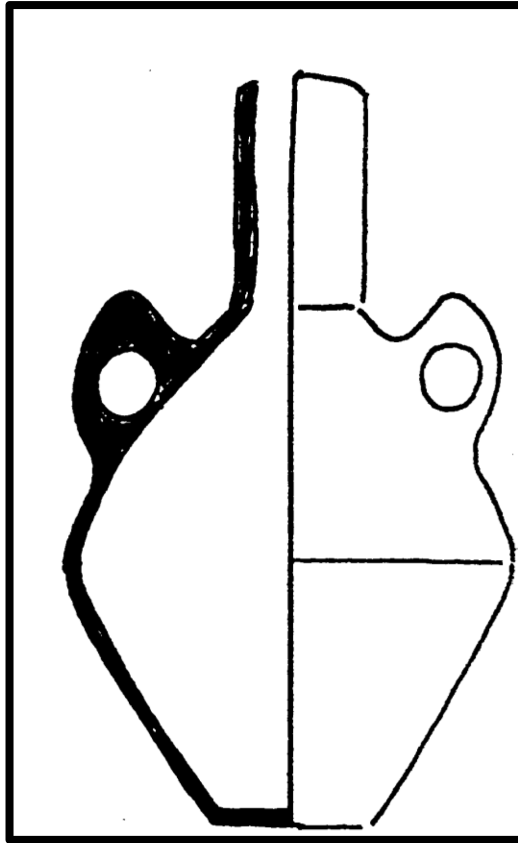


مقلات

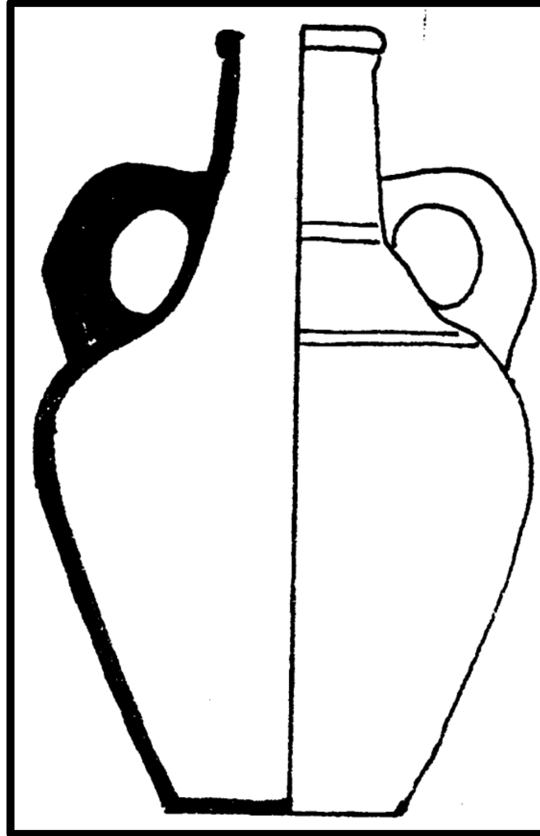


مْرَايا، مقلات لَفْتَاتْ

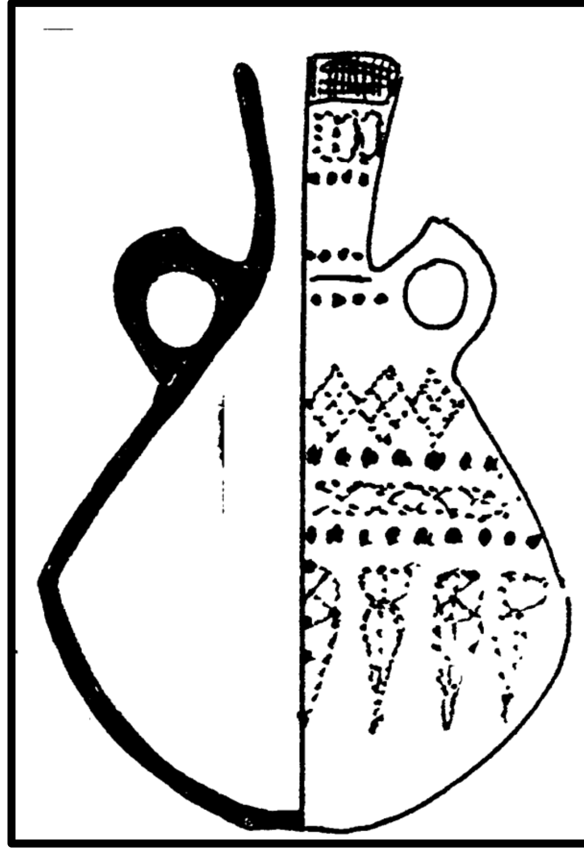
الجرار – 1.3



القُلَّة



القُلَّة

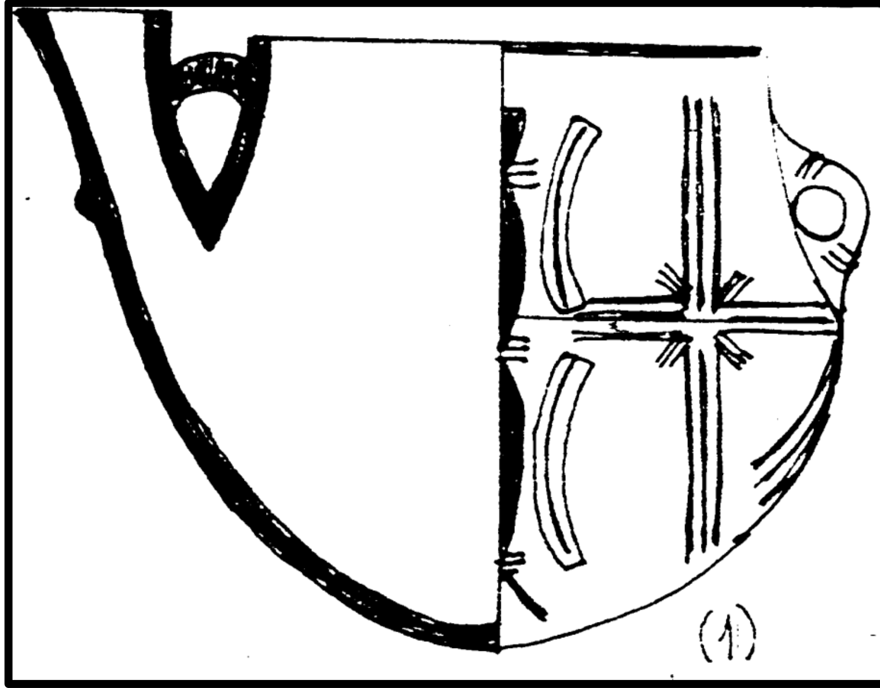


بَرَّاد

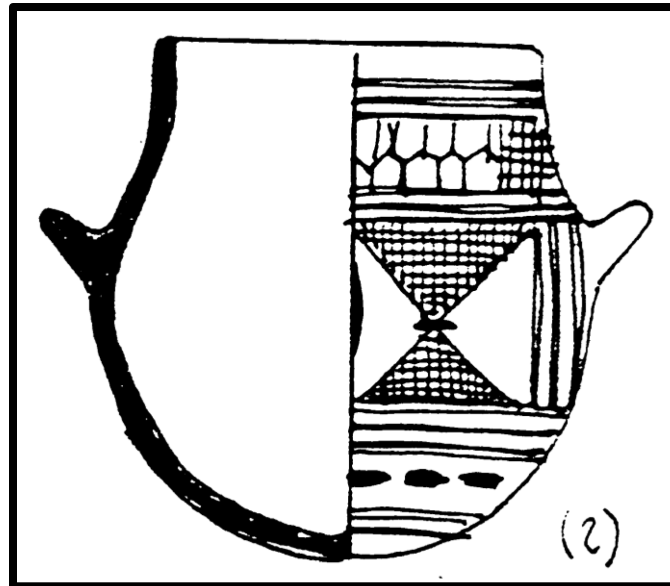
الحسيمة – 2

الفخار المطلي - 2.1

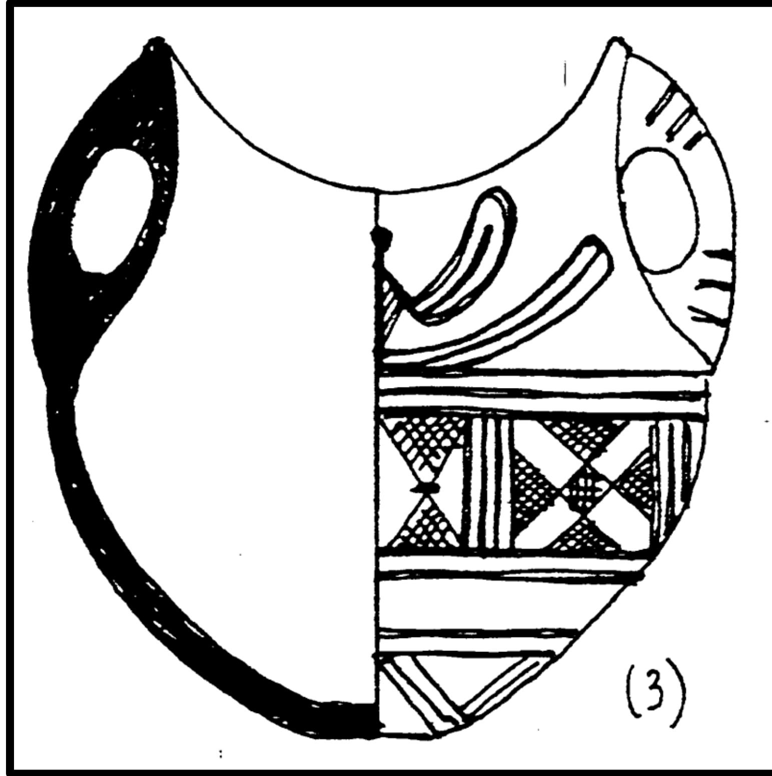
كروي الشكل - 2.1.1

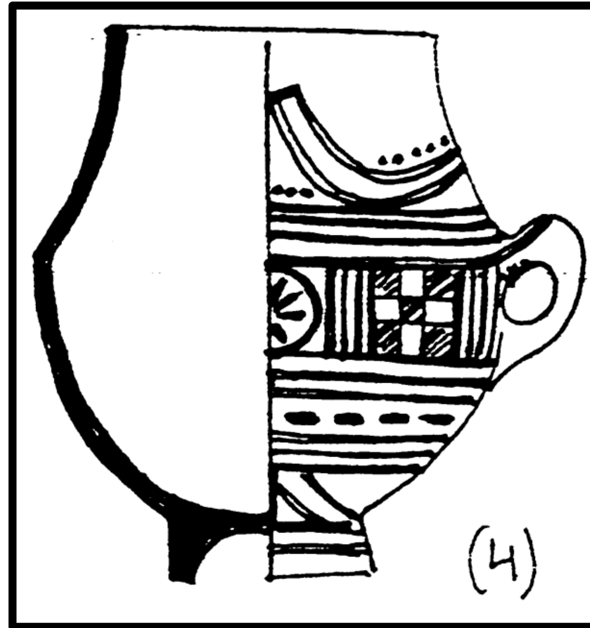


حلابة

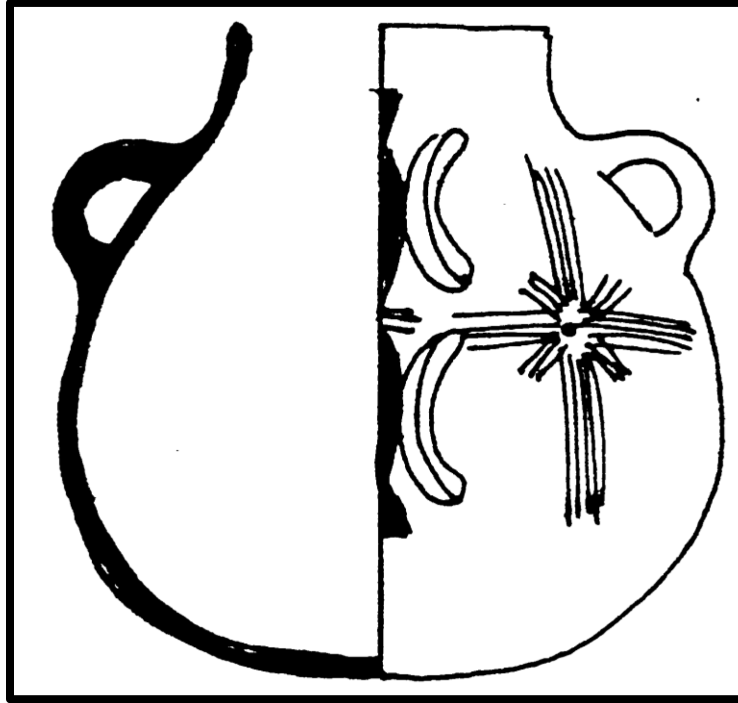


وعاء للحليب الرائب

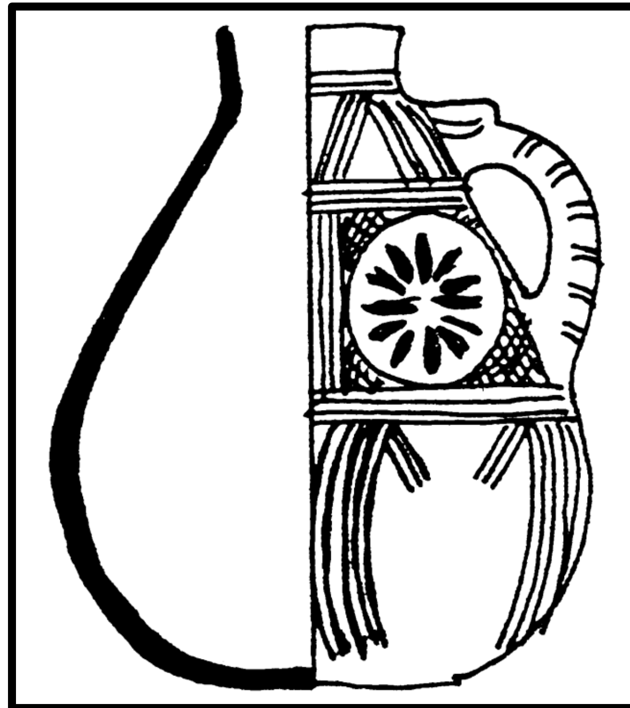




(؛ ذات فتحة واسعة4،3،2،1)

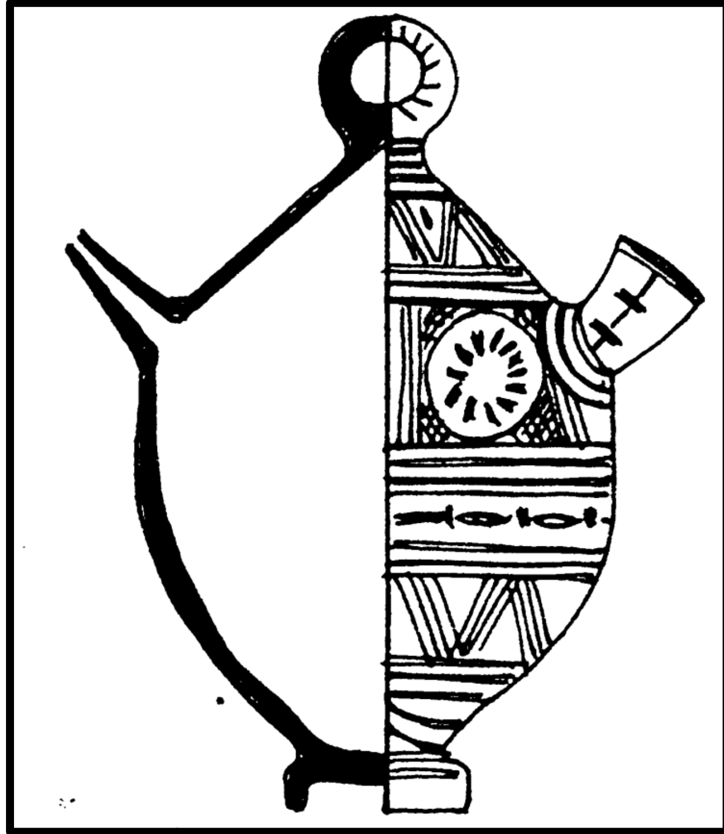


(5؛ فوهة متوسطة) وعاء للعسل

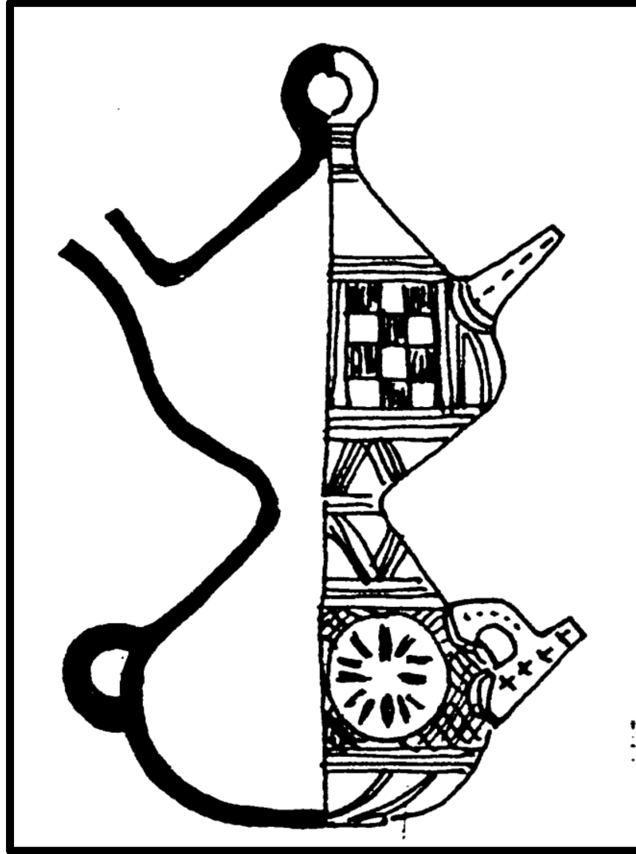


(6؛ ذو فوهة ضيقة) وعاء للسوائل

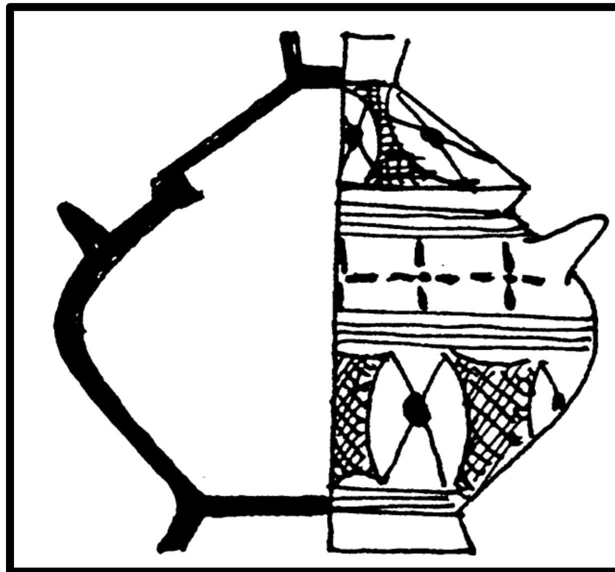
2.1.2 أشكال أخرى



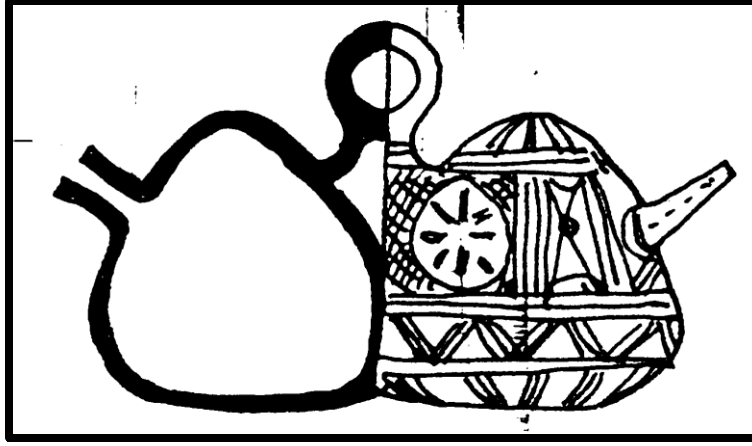
قنينة



قنينة مزدوجة

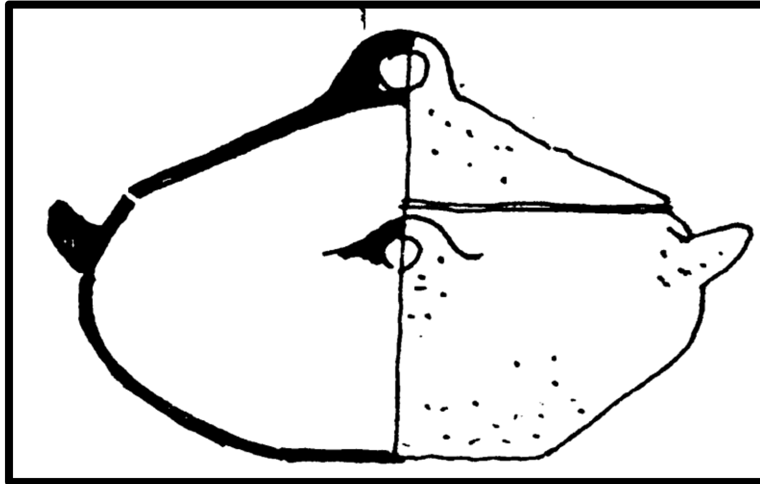


إناء حساء صغير

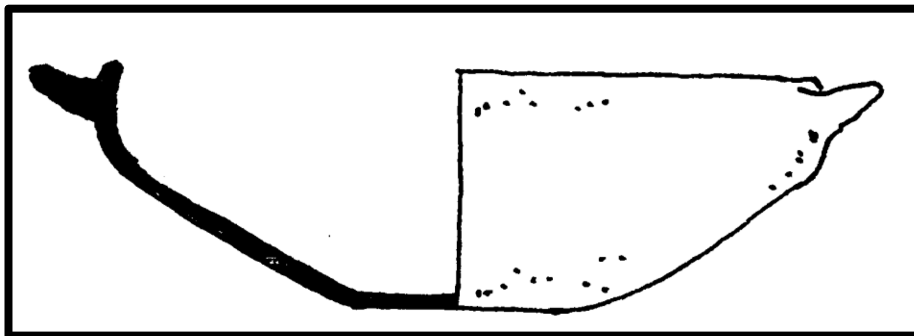


وعاء مزدوج

فخار بدون زخارف 2.2

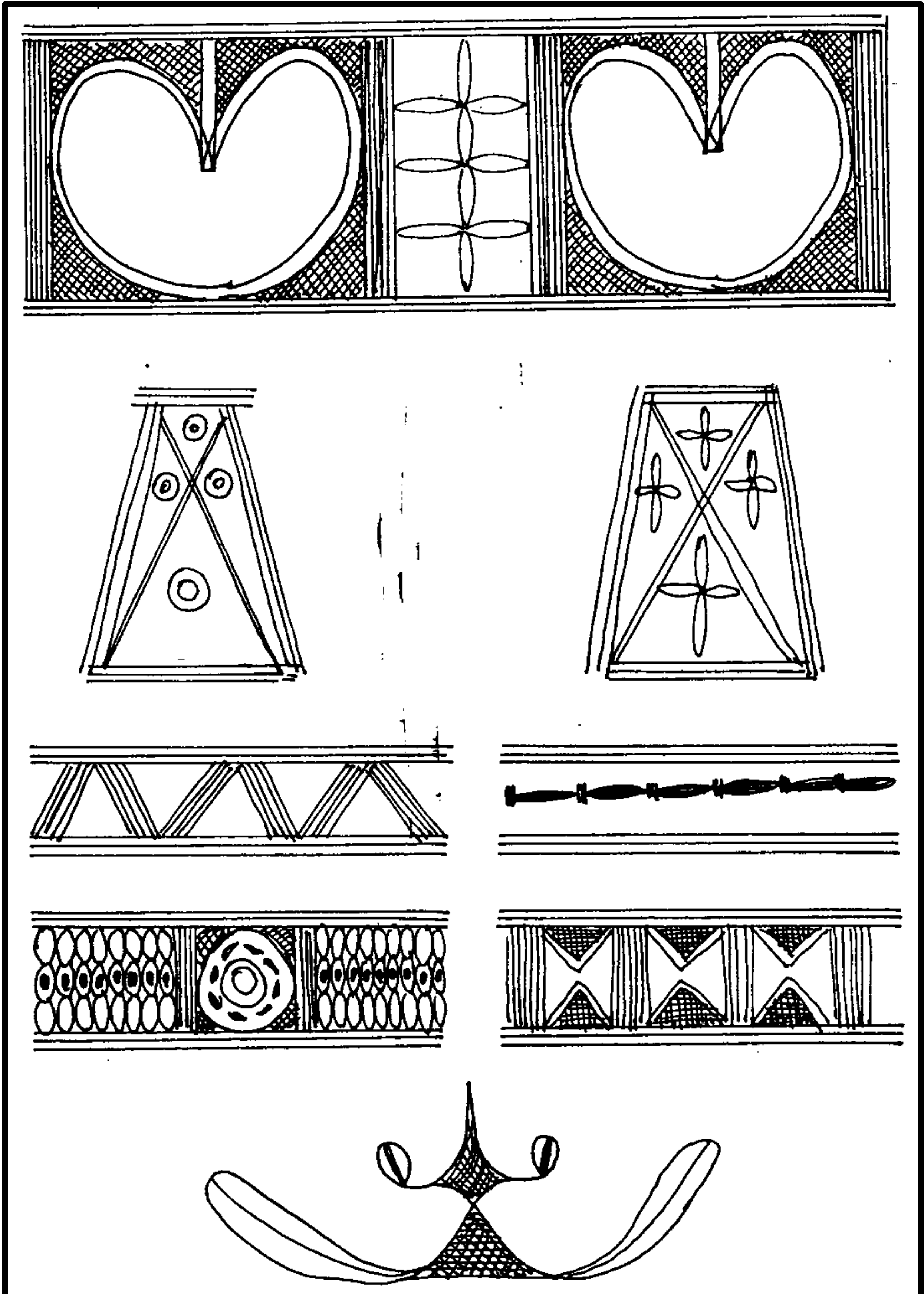


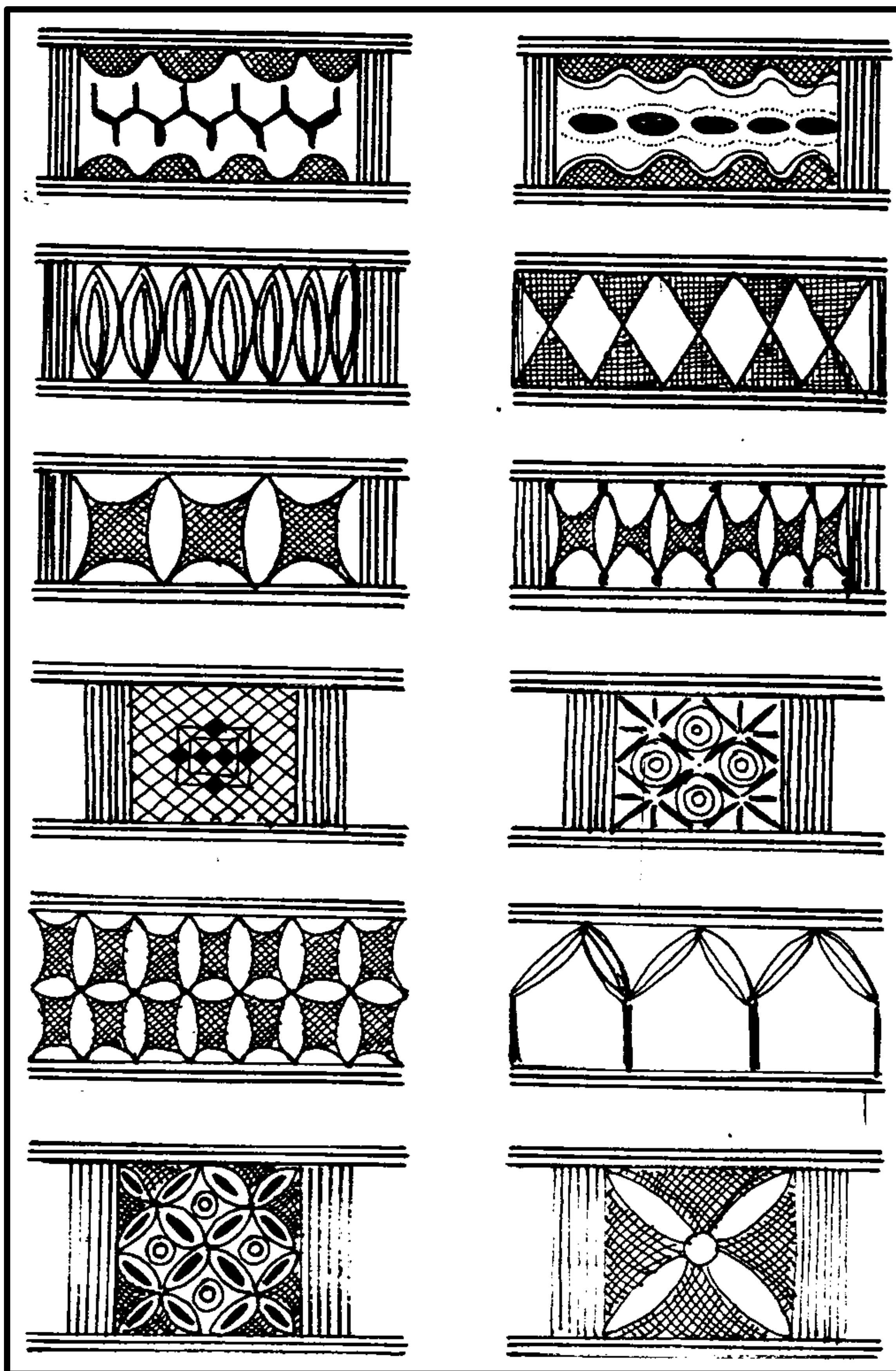
طاجين

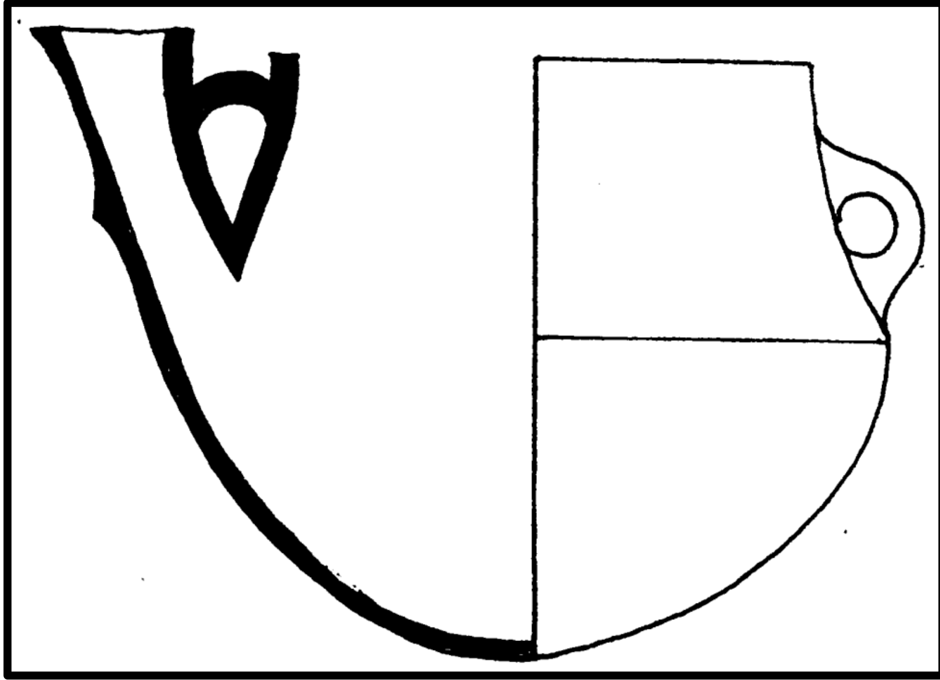


طاجين

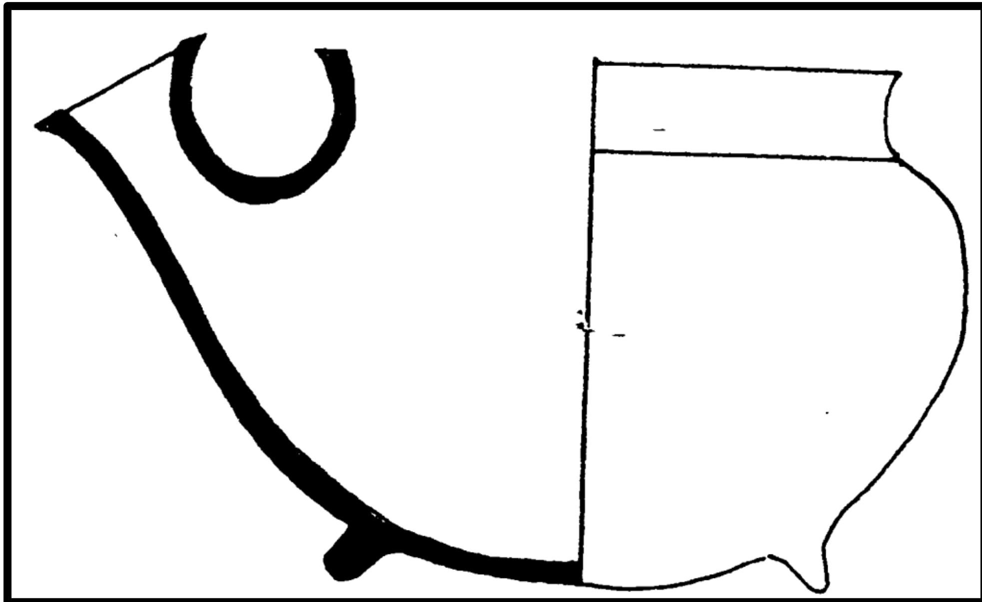
أشكال زخرفية – الحسيمة



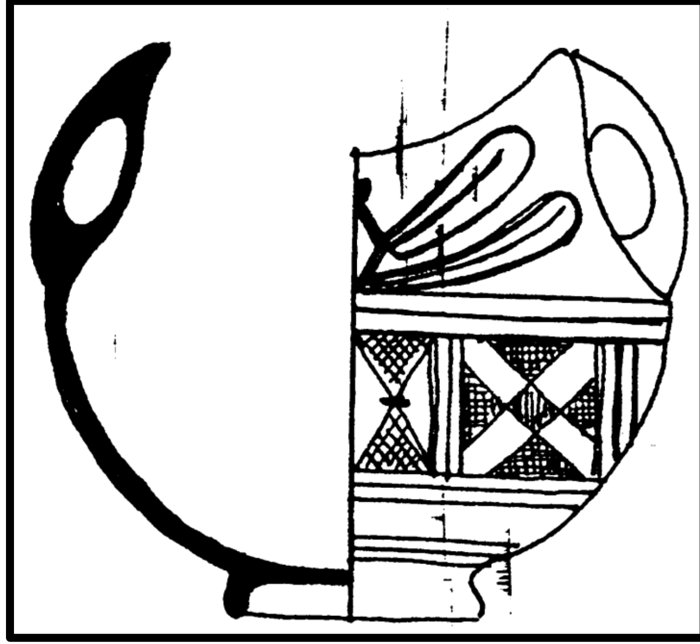




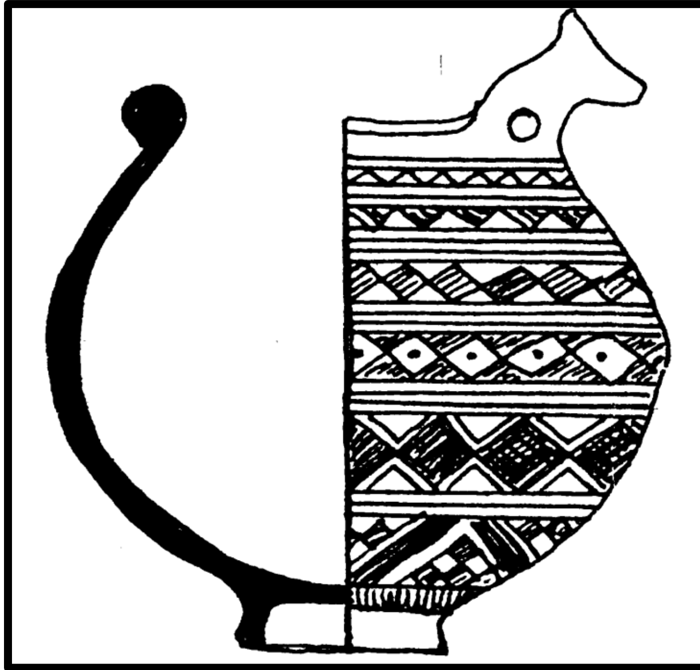
حلّابة – الحسيمة



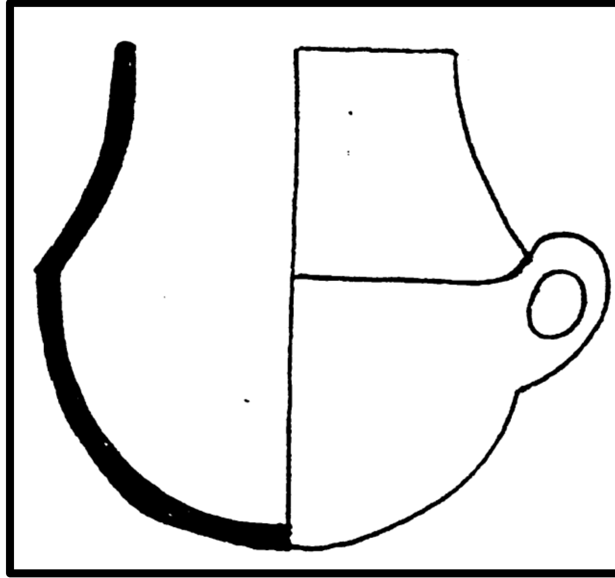
إناء من موقع بلاتينيتز الأثري – بوهيميا



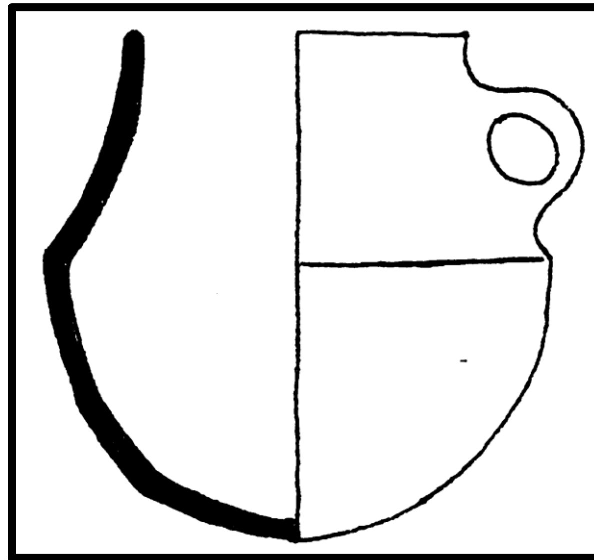
الحسيمة



إناء مزخرف من موقع كالاسايتي الأثري – تيرويل

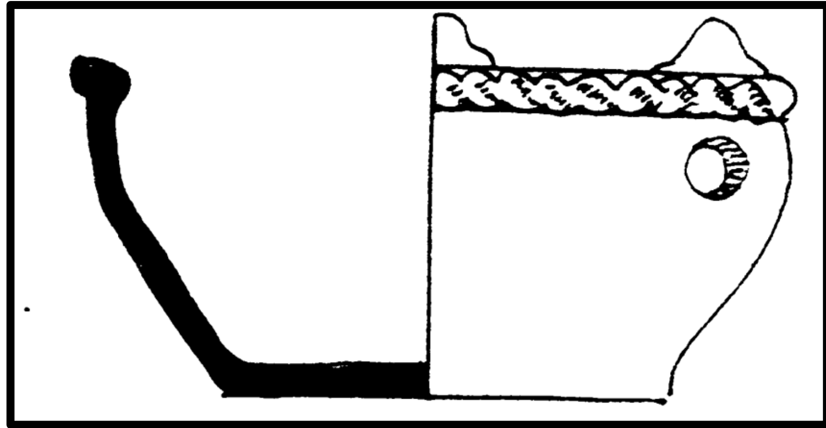


كوب محدب – الحسيمة

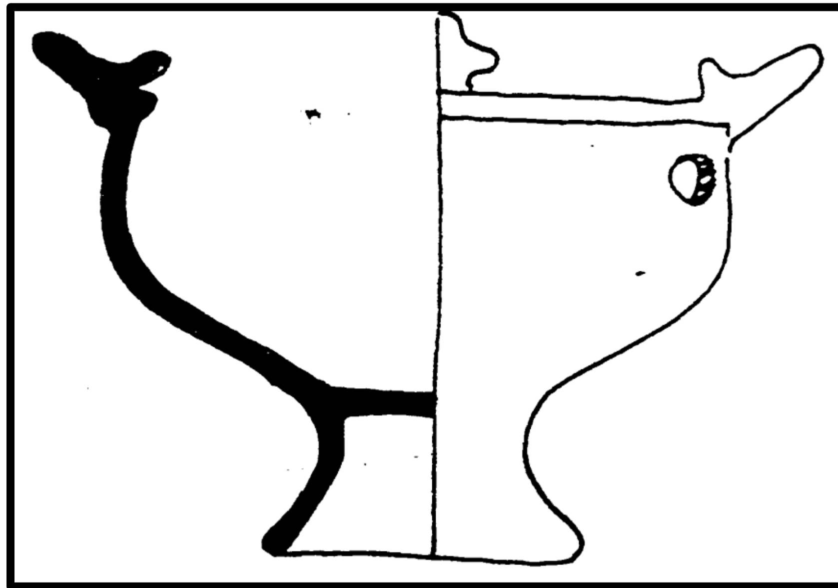


كوب محدب - من العصر البرونزي المتوسطي

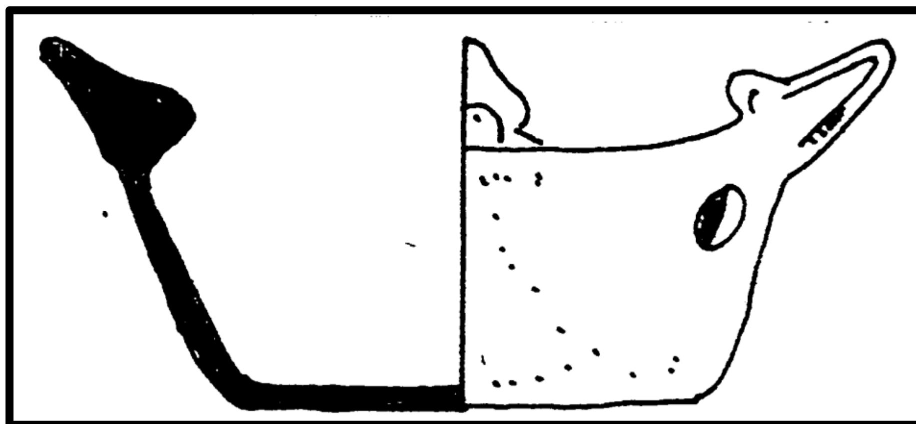
مواقد ومجامر



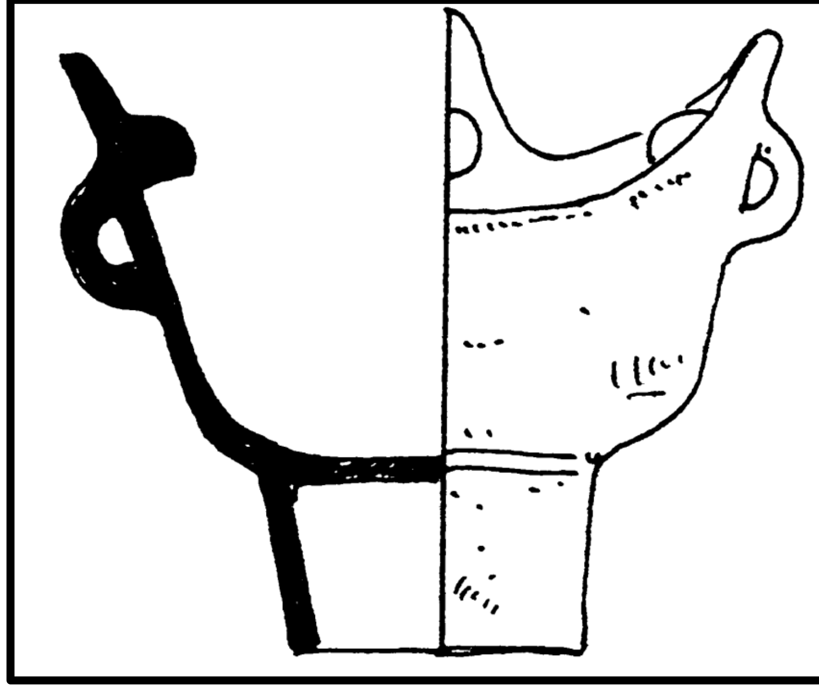
واد لاو



واد لاو



الحسيمة



زغنغان وتازة

هـ) الاستنتاجات النهائية

في الأقسام السابقة، كانت المنهجية موضوعية بشكل أساسي، حيث اعتمدنا على المعلومات التي أتاحتها المعاينة المباشرة.

تمت دراسة العمليات الفنية في صناعة الفخار؛ وتم تصنيف القطع، كما تم الحصول على معلومات شفهية من الحرفيين أنفسهم. ولذلك، فإن عرض كل ما قيل حتى الآن يتوافق مع الواقع اليومي لهذه الحرفة.

ولكن في هذا القسم الأخير نود أن ندرج سلسلة من التقييمات والآراء الشخصية، التي كانت منذ البداية الهدف الرئيسي من هذا العمل. ستدور هذه الاعتبارات حول الجذور الإثنولوجية والتاريخية للفخار في هذه المنطقة، في محاولة لربطه بطرق ممارسة هذه الحرفة في عصر ما قبل التاريخ.

لذلك قمنا بتحديد الإجراءات التي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1 - يتعلق الأمر بمصنوعات يدوية

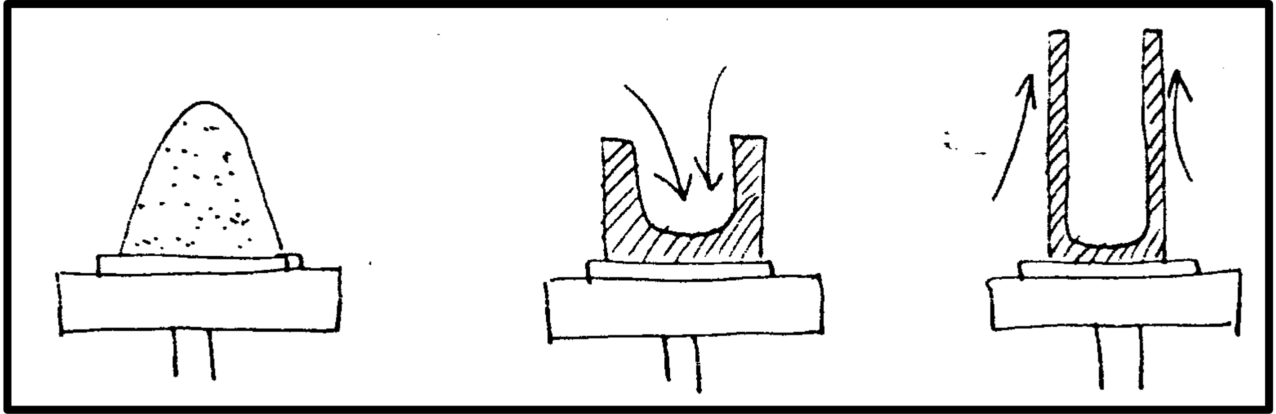
2 - في كثير من الحالات، يتم الحفاظ على تقاليد العمل النسائي لأن هذه القطع مخصصة لتلبية الاحتياجات المنزلية.

3 - يتم تصنيع القطعة وحتى تسميتها، بناءً على طبيعة المهمة التي ستؤديها.

سنبدأ هذا القسم الأخير بمحاولة إجراء دراسة مقارنة بين الأشكال الحالية والأشكال الأقدم تاريخياً، من الأواني الفخارية التي تنتمي الى العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي.

من المناسب تقديم بعض التوضيحات المسبقة لمن ليس على دراية بصناعة الفخار، تتمثل في تحديد العمليات التي ستؤدي إلى الأشكال الأولية.

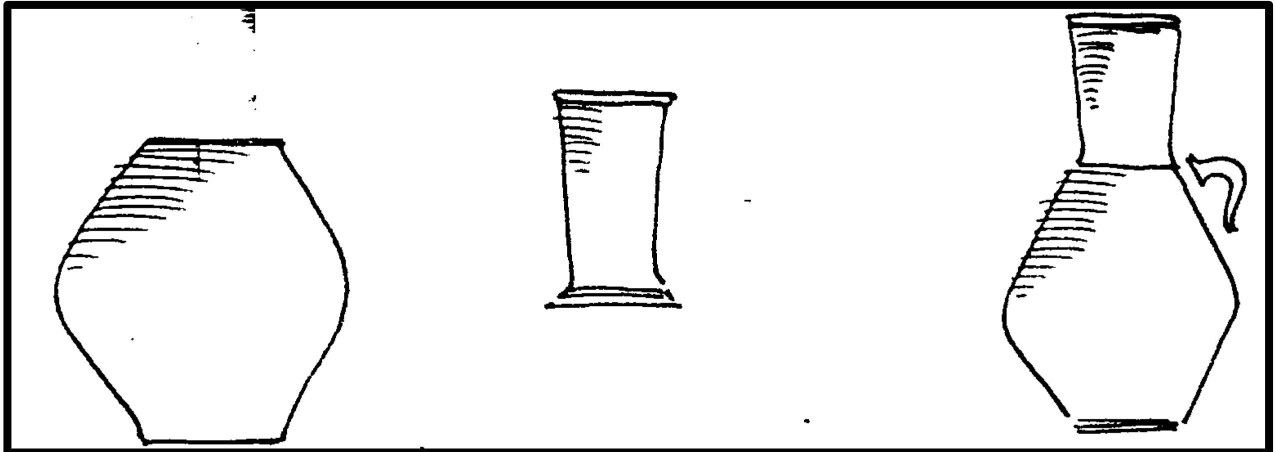
يتميز العمل على المخرطة بإنتاج أحجام أسطوانية في البداية. يضع الفَخَّاري قطعة من الطين على المخرطة ثم يضغط على مركزها للحصول على أسطوانة منخفضة وذات جدران سميكة. بعد ذلك، يشرع في " تمديد" الطين إلى الأعلى للحصول على أسطوانة أعلى وذات جدران أقل سمكاً (الشكل 19).



الشكل 19.

سيكون هذا أساس القطعة. بعد ذلك، من خلال العمل على الجدران، سواء من الداخل أو من الخارج، سيتمكن من إعطائها الشكل النهائي.

ولكن تجدر الإشارة إلى أنه في كثير من الأحيان (عندما يتعلق الأمر بالأباريق والأواني وغيرها من القطع) يتم إضافة أجزاء مثل العنق والمقابض وغيرها من الملحقات إلى القطعة لاحقًا. غالبًا ما يصنع الفَخَّاري جسم الإناء، ويتركه يجف قليلاً حتى يتماسك، ثم يلصق العنق به. (الشكل 20)



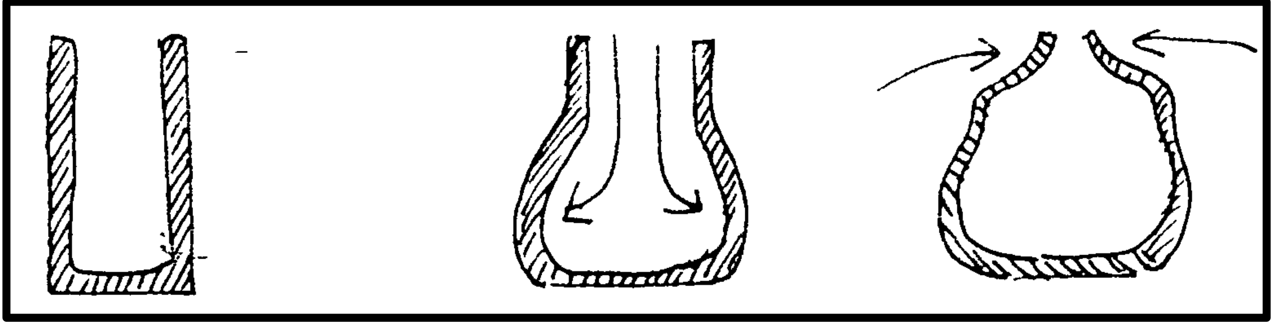
الشكل 20

ويمكن القيام بذلك أيضًا عندما يتطلب حجم القطعة أو تعقيدها ذلك، وغالبًا ما يتم تشكيل الأواني الكبيرة من قطع منفصلة يتم لصقها معًا بعد ذلك.

هذه هي العملية المتبعة لجميع القطع التي يتم تصنيعها "من القاعدة" أي بالحفاظ على نفس الوضع على طبق الخزف طوال عملية التصنيع، وتطبق هذه العملية عندما يتمكن الخزاف من إنهاء القطعة دون الحاجة إلى قلبها لتشكيل القاعدة.

لذلك يمكننا تمييز الأجسام المدورة على المخرطة بشكل عام بخاصيتين أساسيتين:

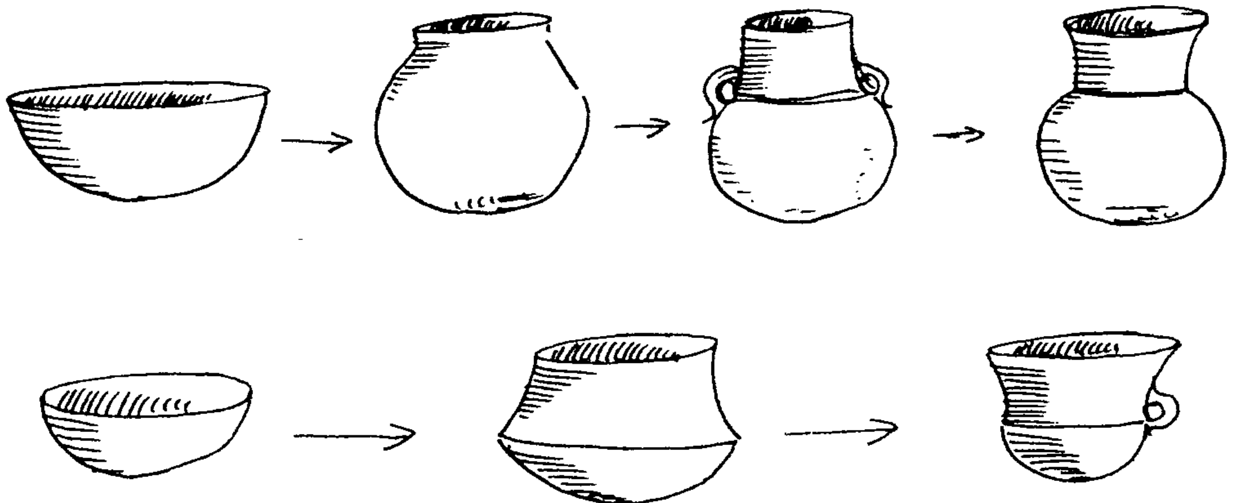
أ) الأحجام الأولية تستند إلى الأسطوانة.



ب) دائمًا ما تكون القواعد مسطحة نتيجة القطع بالخيط الذي يفصل القطعة النهائية عن طبق المخرطة. وفي بعض الحالات فقط يتم تعديل القاعدة لاحقًا.

في حالات أخرى، عندما لا تكون القاعدة مسطحة كما هو الحال في بعض الأواني ذات القاعدة المقوسة والارتفاع المنخفض جدًا، يتم اتباع نفس الإجراء عن طريق قلب القطعة في مرحلة ثانية من العمل.

على عكس هذه العملية، يمكننا القول أنه عندما يتم صنع الفخار يدويًا، يتم تصنيع الأشكال باستخدام الأحجام الكروية كأساس. ولهذا السبب، إذا قمنا بتصنيف الأشكال في محاولة لترتيبها حسب قدمها، يمكننا القول أن الأشكال الأكثر قدما تنتمي إلى هذا التصميم، الذي تضاف إليه لاحقًا قطع أخرى متتالية لتعديله (الشكل 21).



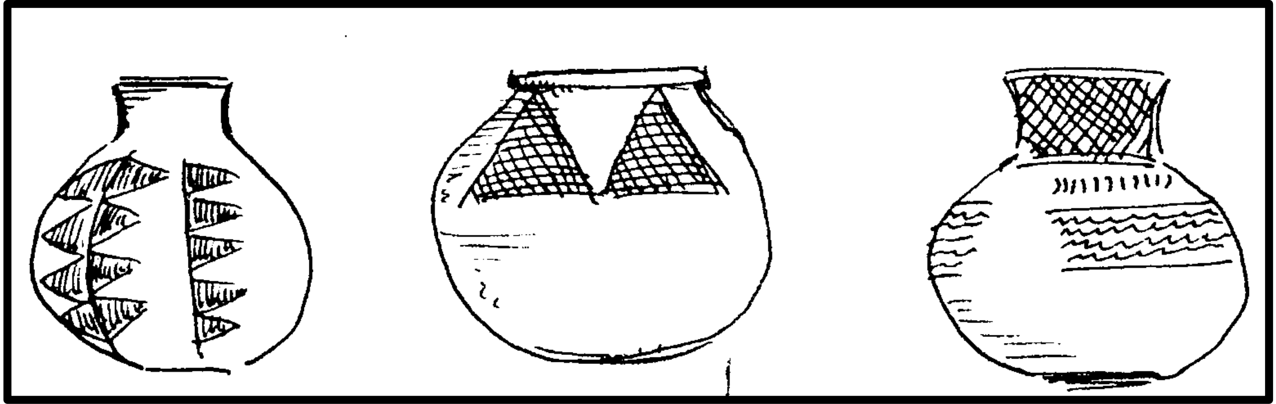
الشكل 21

من المنطقي أن نحدد نقطة البداية بالوعاء نصف الكروي أو الوعاء الصغير لأن صنعه عملياً هو الأسهل والأبسط. إذا أضفنا إليه عناصر جديدة - قطع مخروطية - في وضع أو آخر، فإن الأشكال ستتطور نحو النماذج الجرسية أو نحو نماذج الزنبق الخاصة بالعصر البرونزي الأرغاري.

يقول مونتينيغرو دوكي في كتابه "تاريخ إسبانيا" (غريدوس، 1985) صفحة 146، في إشارة إلى صناعة الفخار خلال العصر البرونزي في جنوب شرق شبه الجزيرة الايبيرية:

إنهم لا يستخدمون الفخار الكارديالي الخاص بالشعوب المجاورة، بل يصنعون أنواعًا أكثر عملية وبساطة " وفائدة؛ ورغم أنهم لم يخترعوا المخرطة الفخارية، فإن فخارهم غالبًا ما يكون رقيقًا ومثاليًا للغاية؛ وهو مصقول بدون زخرفة ويتخذ أشكالًا بيضاوية بشكل عام، مع عنق أسطواني وقاعدة مدببة (قد يكون من الأفضل القول مستديرة) حتى يمكن تثبيته على الأرض. توجد خزفيات مشابهة جدًا في مصر في عصرها ما قبل الأسرات وفي فلسطين في العصر النحاسي، والتي من الراجح أن تكون خزفيات الجنوب الشرقي (الإيبيري) هذه نسخة طبق الأصل منها".

ومع ذلك، فيما يتعلق بالأشكال، وبغض النظر عن الزخرفة، يمكننا أن نعود إلى فترات سابقة، كما هو الحال بالنسبة للخزفيات المنقوشة وحتى المطلية من أوائل العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى (موقع حسونة الأثري في سوريا الحالية) (الشكل 22).



الشكل 22

كما نرى، فإن الأشكال الكروية، على عكس الأشكال الأسطوانية التي ينتجها الفخار المصنوع على المخرطة، هي أشكال شائعة في المراحل الأولى من التقنية اليدوية لصناعة الفخار، ومن هنا نستخلص هذه السمة القديمة لفخار الريف.

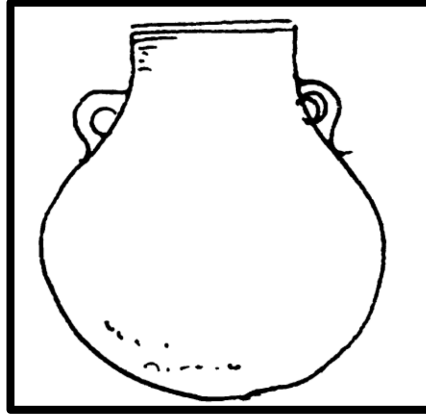
من ناحية أخرى، في اللمسات الأخيرة على القطع في جوانبها الثانوية، مثل الصقل، والفتحات العريضة، والمقابض من أنواع مختلفة، وخاصة المقابض المثبتة، وما إلى ذلك، يمكننا أن نجد أوجه تشابه واضحة بين الفخار الحالي في الريف والفخار القديم.

طاجين" أو (كَدرة) واد لاو بلمساته النهائية يشبه إلى حد كبير فخار العصر الحجري الحديث: أشكال "كروية، فتحات واسعة، جدران مسطحة، إلخ.

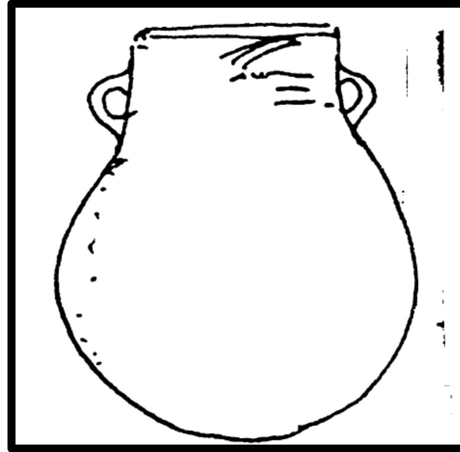
وإذا قارنا أيًا من هذه القطع التي يغلب عليها اللون الأسود بسبب الاستخدام، فإن هويتها تتأكد أكثر.

من ناحيته، يحافظ فخار الحسيمة، على الرغم من البعد الزمني، على صلة واضحة بالفخار القديم.

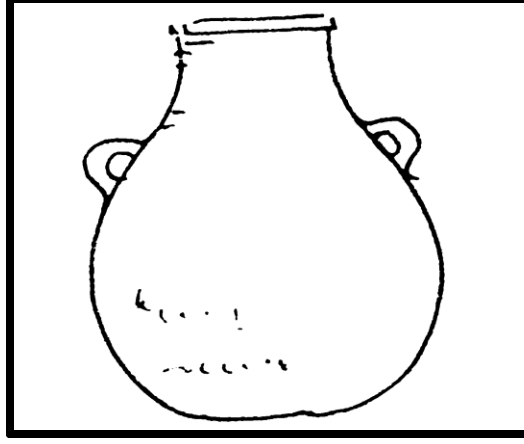
بأخذ النوعين المذكورين (كروي الشكل وذو قاعدة نصف دائرية وفتحة مخروطية) كمثال، نرى أن أوجه التشابه بينهما كبيرة. الشكل 23.



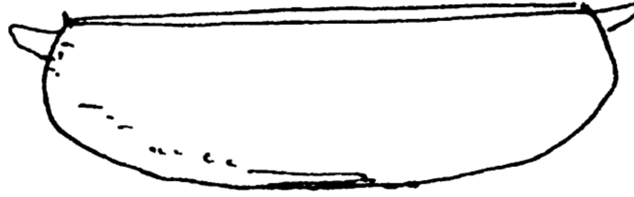
الحسيمة



موقع كهف حفرة المنجم الأثري (مالقة)



موقع الكهف المغطى الأثري، بني غلبون (مالقة)



طاجين " من أجدير – الحسيمة "



وعاء من العصرالبرونزي البلنسي

الشكل 23.

يمكن أن تكون الأمثلة أكثر بكثير، وهناك حتى جوانب أخرى مهمة يجب أخذها بعين الاعتبار.

كما أشرنا سابقًا، هناك العديد من القطع التي يصنعها الفَخَّاري لغرض محدد. وهذه سمة أخرى يمكننا أن نستشعرها أيضًا في الثقافات القديمة.

في هذه الحالة، حيث لطالما كان لتربية الماشية دور بارز، نجد أشياء مصممة خصيصًا لهذه المهام. ولعل أبرز مثال على ذلك هو أدوات الحلب الريفية (الحَلاَّب/ذَقَسْرِيثْ)، وهي أوعية كروية كبيرة مزودة بفوهة جانبية متقنة الصنع.

قطع مشابهة في تصميمها ووظائفها، نجدها بين بقايا ثقافات أخرى بعيدة جدًا في الزمان والمكان، مثل حقول الأواني الجنائزية في بلاتينيتز (بوهيميا) في اللوحة الرابعة.

وبذلك نجد نماذج اجتماعية متشابهة ترسخ تنميتها الاقتصادية على أسس متطابقة (تربية الماشية في هذه الحالة) ونلاحظ أن الريف، بعد أن حافظ بشكل كبير على هياكل اجتماعية واقتصادية ثابتة على مدى مئات السنين، يفعل الشيء نفسه مع المظاهر الثقافية، التي يمكن اعتبارها ثانوية، ولكنها ذات أهمية كبيرة في الحياة اليومية.

هذا يمكن أن يفيدنا، ليس في الحصول على معرفة أكثر دقة عن المجتمع الريفي، لأن هذا المجتمع لا يزال موجوداً اليوم ويمكن دراسته "في موقعه الأصلي"، بل في الاقتراب أكثر من النماذج ما قبل التاريخية البعيدة جداً وغير المعروفة بالكامل.

إذا قارنا الفخار ما قبل تاريخي بعد دراسته وتصنيفه مع هذه الأساليب الفخارية التي لا تزال موجودة، يمكننا على الأقل استنتاج معلومات إضافية تعزز معرفتنا الحالية.

على أي حال، وعلى الأقل، عند التأكيد على أن كل إنتاج بشري هو نتيجة لنمط حياة الشخص الذي ينتجه، يجب أن تحتل صناعة الفخار مكانة بارزة في البحث، لأن معظم البقايا المحفوظة تنتمي إليها، وربما كانت هي الوحيدة التي لم تتغير ظروف تصنيعها بشكل أساسي في الفترة الزمنية التي تفصل بين العصرين، عصر ما قبل التاريخ والعصر الحالي.

لم يتبق لنا سوى تعزيز هذه الاستنتاجات من خلال تناول موضوع الزخرفة، ولكننا سنفعل ذلك بطريقة أقل صرامة، لأن الدوافع الجمالية صعبة التحديد. ولذلك، فإنها قد تعزز الاستنتاجات السابقة، دون أن تكون نهائية في حد ذاتها.

تنقسم زخارف الفخار الريفي إلى نوعين: النقش الذي يظهر بشكل نادر في بعض القطع من واد لاو، والرسم الذي يغلب في منطقة الحسيمة.

تختلف خصائصها بطبيعة الحال بسبب طبيعتها الخاصة وفائدة القطع. فالقدر المخصصة لطهي الطعام على النار لا تحمل أي رسم، لأنه سيتلف مع الاستخدام، وتتميز في جميع الأحوال بسلسلة من النقاط الموضوعة على الحواف أو حول المقابض. وغالباً ما تظهر النقاط والسلسلة المكونة على شكل "أسنان منشار" صغيرة. فقط في بعض الأواني مثل أباريق الشاي والصواني التي تحاكي القطع المعدنية، تكون الزخارف غزيرة ولكن باستخدام نفس التصاميم.

الزخرفة المرسومة الخاصة بمنطقة الحسيمة، والتي سبق أن تحدثنا عنها سابقًا، تُستخدم على الأوعية التي لا تتعرض لحرارة النار. زخارفها دائمًا هندسية الشكل، ويمكننا ربطها بالتقاليد الزخرفية المتوسطية التي بدأت تنتشر باتجاه الغرب في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد.

من الضروري البحث عن الدافع الأصلي وراء هذا التعبير، وفي الحالة التي نحن بصددها، نميل إلى الاعتقاد بأن هذه الرسوم لم تكن في ذلك الوقت سوى بديلاً للزخارف المنقوشة ذات الخصائص المماثلة التي كانت شائعة في المراحل الأولى من هذه الحرفة.

بعد الزخارف الأولى المنقوشة بالصدف البحرية، ظهرت الزخارف الخطية التي تظهر على شكل خطوط متكررة بنفس النمط على سطح القطعة. ثم انتقلت الزخارف من النقش إلى الرسم، متغيرةً في تقنيتها ولكن محافظةً على موضوعاتها.

كانت الزخارف مثل الخطوط المتقطعة على شكل أسنان المنشار، ورقع الشطرنج وغيرها من الزخارف الموضحة في اللوحة الثالثة، شائعة في الأزمنة القديمة.

وبهذا، وكخلاصة نهائية، نعتقد أننا في وضع يسمح لنا بأن نؤكد أن أوجه التشابه بين صناعة الفخار الحالية في الريف والعديد من مظاهر هذا النشاط في المراحل التاريخية السابقة واضحة للغاية، مما سيساعدنا بشكل جلي على فهم الظروف التي نشأت فيها هذه الصناعة.

صناعة الفخار في بلاد الريف